الياقوت العالي

(تمهيد)

بسم الله الرحمن الرحيم

" ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها و ما يمسك فلا مرسل له من بعده و هو العزيز الحكيم"

....

الحمد لله نور الأنوار, و سر الأسرار, العزيز الجبار, و الواحد القهار, منزّل غيث علومه على قلوب العباد المخلصين, و محيي نفوس أوليا ءه بتجليات وجهه العظيم, المبدأ الأعلى لكل الحقائق و الأوهام, و الحقيقة المقدسة السارية في العقول و الأجسام, هو الأول الذي ليس بعده الا أفعاله, و هو الآخر الذي ليس قبله الا مظاهره, و هو الظاهر الذي لم يحتجب الا بعزّته, و هو الباطن الذي لم يخفى الا لشدة نورانيته, عليم بكل شئ في الأزل, و قادر على كل شئ الى الأبد, المحيط الذي غرق الكل في جمال ذاته, و الأصل الذي تفرّع الكل عن حسن أسما ءه, و أنعم على الكل بكمال امداده اذ لم يمد أحدا الا بحسب فضله و استعداده, فالحمد لله على كل نعمه و أفعاله, و الحمد لله على كمال حسن أسما ءه, و الحمد لله على جلال وجهه و جماله, الحمد لله أنه هو كما هو, و الحمد لله أننا نحن كما نحن.

و سلام على عباده الذين اصطفى, و سدد و هدى, الذين رفع عن قلوبهم حجب الغفلة و الهوى, و تولى تعليمهم حتى وصلوا الى سدرة المنتهى, و الصلاة المستمرة الكاملة على الذي قيل عنه "ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى", أسوة العرفا ء و ووارث الأنبيا ء و ممد العلما ء و مربّي الأوليا ء, محمد , و على آله وورثته و من اتبع النور الذي أنزل معه حتى يأتيه اليقين ويتوفّاه الله من المسلمين.

أعظم كتاب ظهر في أمة محمد النبي العربي بعد القرءان الكريم هو كتاب الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محمد ابن عربي و مثله فصوص الحكم. و لم يوجد أي انسان- على حد اطلاعنا و ما وصل الينا وورثناه من تركة الأوليا ء و العلما ء من هذه الأمة المباركة- أظهر الله على يديه من الأسرار و المعارف ما أظهره على يدي ابن عربي رضوان الله عليه. اذ لم يبقي مسألة الا و فصّلها و كشف الغطا ء عن جذورها و أصولها, و لم يبقى فكرة الا و خاض فيها, و لم تبقى حكمة الا و تبحّر فيها, و هذا كله على مستوى النص الظاهر في كتاباته فما ظنك باشاراته و رموزه ! و الحق يقال أننا لا نعرف أيضا أي كتاب في غير اللسان العربي له من القيمة و العلو ما في كتب الشيخ الأكبر, خصوصا موسوعته العرفانية "الفتوحات المكية". و لذلك نرى الناس من أقصا الشرق الى أقصا الغرب الى يومنا هذا, بل خصوصا في يومنا هذا, يغوصون في كتبه, و يؤلفون حولها, و ينشؤون الجمعيات المتخصصة فيها

(كجمعية ابن عربي في بريطانيا, اكسفورد). قد يكتب ابن عربي سطر واحد أو فقرة واحدة و لكن يمكن أن تبني على هذا السطر أطروحة كاملة في مسألة من المسا ئل المهمة, بل قد يصل الامر الى تخصيص مؤلف كامل حول هذا السطر الواحد فقط. فبالاضافة الى قيمة كلماته من الناحية الفكرية فانه أيضا أوتي من جمال البيان و سحر البلاغة و دقة التعبير ما جعل كتابته نور على نور, نور القيمة على نور البلاغة, و مثل هذا لا يصح الا في قلة قليلة من الناس, و الواقع أني لا أعرف انطباق مثل هذا على أحد غير الانبياء و الأولياء الكمّل. فكتبه و خصوصا الفتوحات هي كتب مفصّلة تفصيلا, و في نفس الوقت مجملة و مختصرة (كما يكرر هو نفسه بأن الفتوحات كتاب مختصر, مع العلم أن الفتوحات مكون من نحو خمسة ألاف صفحة كبيرة !) . و من خصائص الشيخ الأكبر أنه ليس ناقل و لا مقلّد في شئ, بل كل ما يكتبه و كل ما يعبّر عنه تستطيع أن تشعر من شدة ظهوره في كلماته أنه سيخرج من الكتاب و يتجسد أمامك. فكتبه ليست حشوا مكررا لقال و قيل و قلنا, و حدثني و حدثنا, و لا هي بالكتب التي تشعر عند قراءتها أنك أمام انسان فقد ذاتيته و مسخت حقيقته عن طريق الخضوع الأعمى لسلطة ما أيا كانت هذه السلطة, فحتى شرح الشيخ للايات القرءانية و المرويات الشريفة و كلمات العلماء و الاولياء تجد فيها رائحة الشيخ نفسه, فانه لا يتحدث الا عن ما يفقه و ما كوشف به أو أوتيه من فهم. ففي حضرة الشيخ أنت أمام انسان كامل, وصل و عرف, رأى و اغترف, و بعد ذلك فاض ما في قلبه فانساب على قلمه فظهرت هذه الكتب الخالدة العظيمة التي من أبرزها الفتوحات المكية و فصوص الحكم. و نسبة الفتوحات الى الفصوص كنسبة سورة البقرة الى سورة الضحى, الأولى مفصّلة مطولة و الثانية مضغوطة و مختصرة.

و من الأمور التي تميّز بين كتب العرفان و الكتب الاخرى عموما هو أن الكتب الأخرى لا تحتاج الا الى دماغ مناسب و لكن كتب العرفان تحتاج الى وجود مناسب. مثلا, لكي تدرس كتب القانون أو الطب, فانك لا تحتاج الى أكثر من تكريس بعض الوقت و الجهد للأخذ عن اساتذه في جامعه معينه و أن تقرأ الكتب المقررة بعد أن تفهم المنهاج السليم في دراستها و فهمها ثم بعد أن تعتاد عليها فانك تكون قد أصبحت من أهلها و كفى. فقد يكون "الطبيب" من أعلم الناس بالطب و لكن صحّته هو من اسوا الناس فهو يملك "معلومات" عن الطب, و قد يستطيع أن يشرحها بكل دقة و عمق و استيعاب, و قد يستطيع حتى ان يعالج بها المرضى و يشير بها على الطالبين لها, و لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه هو ممن يعتني بصحته أو نحو ذلك. و قل مثل ذلك في "الفقيه" الشرعي او القانوني, فكم من فقهاء الشريعة ممن لا يوجد وصف أنسب لهم من وصف ابن عربي حينما قال "الفقهاء..فراعنة الأولياء و دجاجلة عباد الله الصالحين" فكانوا من حيث الحال و القلب كحال الجاهل المحض بل و لعل الغير مؤمن خير منهم في أسلوب حياته عموما فلم ينفعهم حفظهم و فهمهم ل "معلومات" الشريعة شيئا . و كم من فقهاء القانون من يكون دافعه للتفقه فيه هو فقط من أجل أن يعرف كيف يستطيع أن يخرق القانون بدون أن يخرق القانون . فكل هذه الكتب و المجالات هي في حيّز "المعلومات" و الدماغ البشري, و أصحابها و أربابها ليسوا بالضرورة ممن يؤمن بها او يعمل على أساسها أو تكون له سمات جمالية أو عقلية (بالمعنى العالي للعقل). فشئ ما

من الوقت و الجهد كفيل بجعل الشخص ممن يفقه كتب هذا التخصص او ذاك و يمكنه من حشو رأسه بمعلومات هذا المجال.

و أما كتب العرفان فالأمر مختلف بل مغاير تماما لكل هذا. و ذلك من حيثيات:

فأولا, لا يستطيع ان "يفهم" كتب العرفان الا العرفاء. كما قال أحدهم " لا يفهم كلامي الا من وصل الى مقامي". و لكن في سلك العرفان درجات كما قال القرءان "هم درجات عند الله", و عموما كل من وضع قدميه على درج المعرفة المقدسة فان الغالب هو أن يستطيع أن يفهم شئ من كتب العرفاء حتى لو لم يكن في نفس مرتبة العارف صاحب الكتاب. و أما غير العرفاء بالكلية فحتى لو أعطيناهم ألف كتاب و ألف شرح فانه لن يستطيع أن يفهم شئ منها, لأن حقيقة هذه الكتب و مدلولاتها ليست وراء الحروف العربية أو الفرنسية أو الالمانية و لكن مدلولاتها هي حقائق وجودية فمن لم تكن له صلة بهذه الحقائق فان الكلمات لن تكون بالنسبة له الا كمثل سراب" يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا", بل ان من المصائب التي أصيب بها العلم العرفاني هو أنه أصبح من لا حظ له في هذا السلك العالي يتطّفل عليه و يؤلف فيه المؤلفات على اساس أنه شارح أو معلّق او دارس "اكاديمي" و هذا من ثمار شجرة الفكر المعاصر (بالمعنى الميت السفلي الذي ألغى أي اعتباره للدرجات الوجودية غير دركة أسفل سافلين الأجسام) اذ هذا الفكر العبثي الفوضوي أصبح يعتقد بأن كل ما أنتجه البشر ينتمي الى فئة واحدة عامة في التصنيف و هي "العمل البشري المادي" مما يعني أنه مثل أي عمل اخر جوهريا و ان اختلف عنه صوريا و من حيث الاسلوب. و على ذلك, كل من يستطيع أن يفهم "مصطلحات" أي علم, و يفهم "أسلوب" أهل هذا العلم في التعبير, بالاضافة الى شروط أخرى سطحية من هذا القبيل, فانه يملك الحق "الاكاديمي و العلمي" ليس فقط للتاليف في هذا المجال بل حتى لنقده و تبيين أخطاءه . فيمكن أن نجد مثلا اكاديمي ملحد (عقائديا) و مادي (عمليا) و سفلي (نفسيا) و لكن اللهم يوجد قبل اسمه حرف (د) المشؤوم هذا الذي يدل على انه (دكتور) مما يوحي بأنه أصبح متخصصا و قادرا في هذا المجال, فيأتي هذا الدكتور (و كثيرا ما يكون الدكتور ثور فتأمل) و يأخذ كتاب فصوص الحكم مثلا و يبدأ يتحدث عن كيف أن عقلية ابن عربي خلاّقة و عبقرية و كيف أن اجتهاده في التصوف جعله يبدع مفاهيم و أفكار غريبة و عجيبة و قامت بالتأثير الكذائي في التاريخ الفكري للاسلام...الخ هذه الكلمات التي معظمها ليس الا تصنيفات ميتة تتفرع عن النظرة السفليه العصرية للأمور. و هذا متوقع, اذ مثل هذا الدكتور لن يقيم وزنا لتصريح ابن عربي بأنه لا يتحدث الا بناء على "كشف الهي" و أنه لا يكتب الا ما يلقى اليه و يؤذن له في القاءه, و أن الحقائق التي يتحدث عنها غالبا بل دائما هي الحقائق العالية التي تحيط بالوجود كله و هذا يعني أنها ليست "نسبية" اذ انها لا تنتمي الى البعد "النسبي" في الوجود, و ما أشبه ذلك من أسس يقوم عليها منهج ابن عربي كله بل هي قواعده و أسسه, و لا يبعد أن يفسّر هذا الدكتور مثل هذه التصريحات على أنها من "الضرورات الاجتماعية" التي دفعت الشيخ الى أن يلبس "أفكاره" ثوب المكاشفة و الايحاء و الالهام الرباني حتى يستطيع أن "يسوّق" لها بين المسلمين "القدماء" الذين "كانت" عقليتهم محكومة بالغيبيات (و التي

تعني خرافات في قاموس مثل هؤلاء) و في أسوأ الاحوال قد يفسّر مثل هذه التصريحات على أنها "أوهام نفسية" و نحو ذلك.

و هذا من أكبر الاعتراضات على دراسة غير العرفاء لكتب العرفاء: فانهم ينكرون أسس و قواعد هذه الكتب, فكيف يحق لهم أن يدرسوها و ليست الدراسة الا الفهم, و كيف يمكن أن يفهمها و هو ينكر بل يستسخف أسسها و قواعدها ! و لهذا قال البروفيسور سيد حسين نصر- بارك الله في عمره- في كتابه "العلم و المقدس" ما معناه " الشبيه وحده يفهم شبيهه, كيف يمكن لعقل فارغ تماما من الشعور بالمقدس أن يستوعب أهمية المقدس كمقدس ؟ " فكما أنه لا يحق لغير المهندس عموما أن يؤلف في كتب الهندسة, و لا يحق لغير الطبيب أن يحاضر في مواضيع طبية, فكذلك لا يحق لغير العارف (أيا كانت درجته) ان يكتب في شؤون العرفان و يحاضر عنها فضلا عن أن يشرحها و يبين حقائقها. و بالمناسبة, قد يكون الرجل ذو خلفية اسلامية و لكنه مع ذلك لا يحق له أن يخوض و ينقد العرفان الاسلامي. و قد يكون الرجل هندوسيا و لكن يحق له أن يؤلف في العرفان الاسلامي اذا كان عارفا في ذاته. فمدار الأمر على وجود المعرفة بالمقدس و باقي المسائل يمكن تسويتها بنحو أو باخر. فهذا هو الفرق الأول.

و ثانيا, ان العرفان علم يملأ الوجود و ليس معلومات تملأ الدماغ. فكل حرف نقرأه في كتب العرفاء يعني في الواقع أن شيئا ما في وجودنا قد تغيّر. و هذا التغيّر يبدأ من السر و ينتهي عند الجسم. فمثلا عندما نقرأ في الفتوحات عن حقيقة أن الكلمة التي يلفظها الانسان تبقى في الجو و لا تفنى و تؤثر في المحيط الذي هي فيه. فان هذه ليست مجرد "نظرية" او "فكرة خلاّقة" أبدعها خيال ابن عربي الرومانسي الرائع, بل ان من أبسط الأمور التي تترتب على هذا من الناحية "العملية" الجسمانية, هي أن العارف يصبح يحس في كل مكان يدخل فيه بمعنوية هذا المكان, و يحس بتأثير ذلك على وجوده, فان كان نورانيا في الغالب بقي فيه و ان كان ظلمانيا في الغالب انصرف عنه و يرفض أن يجلس فيه, و منه أن العارف لن يتكلم الا بخير و حق و جمال, لأنه يشهد فعلا حقيقة كلماته التي يلفظها و يشعر بها كما يشعر صاحب الجسم السليم بصلابة الحديدة و رائحة الورود و عفن المزابل, نعم شعور حقيقي بدون أي مبالغة أو كناية و استعارة , و بدون اي تكلف من قبله, بل مجرد أن "يقرأ" ما كتبه الشيخ الأكبر مثلا, القراءة الوجودية بالطبع و ليس مجرد امرار الكلمات على العين و الدماغ, و يرى حقانية ذلك فان هذه الحقيقة تنصب على ذاته حتى يصبح يشاهدها عيانا. فالعرفان يدرس لتغيير وجود الدارس بالكلية, و بدون هذا الدراسة لا تساوي قيمة الورق الذي طبعت عليه. و كذلك قراءة كتب العرفان, انما هي من أجل تغيير وجود القارئ بالكلية, و بدون هذا القراءة قد تضره أكثر مما تنفعه هذا ان نفعته أصلا. فمن أراد دخول هذا الباب فليعلم شئ عن حقيقة البيت قبل أن يفتح الباب.

أخيرا- للاختصار-, فان الفهم التام للمساءل العرفانية انما يكون بالاستمداد من الله تعالى. فهو المعلّم الاول و الاخر و الظاهر و الباطن للمعرفة المقدسة كلها. "و اتقوا الله و يعلمكم الله" "الرحمن. علم القرءان". ففي المدرسة الروحانية الله هو معلّم الجميع, و هو مرشد الجميع. فالله تعالى ان صح التعبير هو فقيه الشريعة, و شيخ الطريقة,

و مفيض الحقيقة. فالمبأ هو هذا. و لكن بالنسبة لبعض الناس لسبب او لاخر, قد يكون استمداده من الله عن طريق مظهر من مظاهر الله, كما هو الحال مثلا عندما نتعلّم من الرسل و الانبياء. فان الرسول هو مظهر من مظاهر الله, و لذلك "من يطع الرسول فقد أطاع الله" لأنه "ما رميت اذ رميت و لكن الله رمى" فلاحظ أنه أثبت له الرمي "رميت" و نفى عنه الرمي "ما رميت" فكيف يصح أن ينفي عنه و يثبت له في نفس الوقت و نفس الحالة ؟ أليس "النقيضان لا يجتمعان" ؟ الجواب: الله رمى بالحقيقة و النبي رمى بالصورة, فالنفي انما كان بالنسبة للحقيقة اذ الرامي هو الله, و الاثبات كان للصورة (اذ يجب أن نعطي كل ذي حق حقه بحسب حدّه) اذ الرامي هو النبي. فابالنسبة لمن يعتقد بان الرامي هو النبي فقط فان التعليم يأتي بحكم "و ما رميت " حتى يخرج هذا المعتقد من الشرك في التوحيد الافعالي الى نور التوحيد الذاتي, و لكن بالنسبة لمن غرق في بحر الأحدية حتى أصبح ينكر تجلياتها (و تجلياتها بالنسبة للكامل هي نسبة ذاتية لها, كما قال مؤيد الدين الجندي في شرحه على الفصوص, و بناء على هذه النسبة الذاتية قال " من يرى التعين نسبة ذاتية للمتعين فهو في لقاء دائم " هذه الكلمة الجامعة لأسرار العرفان كله في خلاصته و لبابه) فبالنسبة لهذا المنكر يأتي التعليم بحكم "اذ رميت". فالرسل هم صور الله, و الله هو الفاعل على الحقيقة. و لولا ذلك لكان قوله "من يطع الرسول فقد أطاع الله" نوعا من الكفر المحض و العياذ بالله, اذ ظاهر النص وجود تطابق بين الرسول و الله, فكأنهما شئ واحد بالذات, و هذا يستحيل اذ "لا مناسبة بين الله و خلقه" كما كتب ابن عربي في الفتوحات. (و هذا رد على من يزعم و يتخرص بأن ابن عربي يقول بوحدة الوجود – بالرغم من أن اصطلاح "وحدة الوجود" لم يقل به أصلا الشيخ كما قرر ذلك البروفيسور ويليم تشيتك في العدد 48 من اصدار جمعية ابن عربي, بالمعنى السلبي لها, و الحق أن هذا المتخرص لا يفقه شيئا عن نظرية وحدة الوجود الا كما تفقه عنها جدّتي الأمّية رحمها الله). و بالتالي, بناءا على مبدأ ظهور الله في أولياءه يكون الاخذ عن الأولياء مع الوعي بمظهريتهم لله تعالى هو كالاخذ عن الله تعالى. فاذن, العرفان لا يؤخذ الا عن الله تعالى, مباشرة أو بالواسطة مع الوعي بالحقيقة. و كل "عرفان" لم يكن هذا طريقه فانه ليس عرفان, و أحسن ما يقال في مثل هذا هو أنه من ابداع "خيال خلاق" لفلان و فلان و شئ من الادب و الاوهام البشرية التي يتسلى بها البشر في حياتهم الارضية التعيسة.

و يوجد بالاضافة الى ما فات شرط آخر يعتبر من شروط الدخول في عالم أحد العرفاء, خاصة ممن يسكنون في الملأ الأعلى (أي "الاموات" بحسب الرؤية القاصرة). وهو شرط "الاذن و الاجازة". حياة العارف على الارض تستمر بصور متعددة أهمها هي كونه ترك كتابا. فعن طريق وجود هذا الكتاب تكون روح العارف قابلة للتواصل الجسماني كمثل ما كانت عندما كانت في جسم معين. فالكتاب كالجسم من هذه الحيثية. وبالطبع يختلف التأثير بحسب قوة و درجة روح العارف. و بيت العارف هو كتابه و علمه. و لا يجوز الدخول الى البيت الا بعد الاستئذان من صاحبه و الاستئناس منه. و هذا الاستئذان فرض مستمر. و للاستئذان عموما و الاستئذان الروحاني خصوصا أسرار كثيرة

ليس هنا محل تفصيلها. الا ان القدر الكافي الان هو معرفة ذلك مجملا. و على ذلك, يكون وجود اذن من صاحب الكتاب بالدخول الى عالمه و الأخذ من ماله و التحدث باسمه هو من الفروض الروحية و المعنوية التي يجب على من كان له ذوق راقي أن يحافظ عليها. و لذلك من يريد ان يفتح له الشيخ الأكبر بيته العظيم عليه أن يستأذن الشيخ و ينتظر الاجابة منه. و درجة وضوح الاجابة تختلف بحسب استعداد المستأذن, فتتعدد صور الاجابة, و من هذه الصور أن ينشرح صدرك للكتاب و تنصب عليك معارفه و مشاعره و تتكشف لك أسراره و رموزه بدون مشقة, كما قال الله تعالى مبينا هذه السنة "من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلم" فعلامة قبول الله لاسلامك هي أن يشرح صدرك له, فكما ترى هو معيار ذاتي تشعر به في نفسك, و لكن بالطبع يوجد صور أخرى لقبول الله لاسلامك و قد تكون كما هو الحال مع ابرهيم " اذ قال له ربه: أسلم. قال : اسلمت لرب العالمين" فهنا يظهر الفرق بين أن يدعوك الله لدينه, و بين أن تسعى أنت له فيجعل لك اية من نفسك أنه قبلك في دينه و بيته, و غير ذلك من صور تجدها مفصّلة في كتاب الله العزيز. فمن الناس من يرى الدين على أنه شئ مجرد يستطيع أن يدخله وقتما يشاء كيفما يشاء بدون أي حاجة الى دافع الا من نفسه, و هذه درجة. و لكن من الناس من يرى الدين كبيت له صاحب فلا يرى لنفسه الحق أن يدخله الا بعد الاستئذان من صاحبه, و من هذا الصنف الاخير يوجد من يذهب الى البيت و يطرق الباب ليفتح له, و يوجد من قد لا يرى نفسه أهلا حتى للذهاب الى بيت العظيم بل يجلس كالفقير تحت ظل شجرة ينتظر دعوة صاحب البيت, و من هذا النوع الاخير و هو النوع الأعلى, كان ابرهيم و موسى و لذلك انتظر أن يدعوه الله اليه "اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت". و لولا واجب الرعاية لكشفنا عن سر عدم ذكر حرف الفاء في اية "قال أسلمت" اذ لم يقل "فقال أسلمت" و في عدم ذكر الفاء التي تدل على السرعة في الاستجابة يوجد معنى لو انكشف و عرفه جماهير اهل الاسلام لكفر أكثرهم بسببه, فلنسدل الحجاب على الحرائر الى يوم تبلى السرائر. على أية حال, فانه كلما عظم قدر الولي العارف و كلما عظم فقر المريد الساعي، كلما انتظر المريد دعوة شيخه لدخول بيته, هذا لو كان "شيخ كبير" فما بالك و هو "الشيخ الأكبر" ! و قد جاء الاذن و لله الحمد, و لكنه اذن مقيد بحيث لا يكون التأليف الا على نحو مختصر , و يكون بناءا على مختارات من كلمات الشيخ – قدس الله سره. و ذلك لأسباب كثيرة من أهمها أن كتب الشيخ موجودة و لله الحمد فمن أرادها فليرجع لها مباشرة, اذ لا يوجد خير شارح لكلمات من صاحب الكلمات نفسه. و منها ان الكثير ممن لهم او قد يكون لهم اهتمام بكتب الشيخ الاكبر لم يستطيعوا ان يتصلوا به بسبب تعقيد كلماته بالنسبة لهم او بسبب كبر حجم كتبه و التي فيها كثير مما قد لا يهمهم في شئ, فتكون اهتماماتهم محصورة فيما قد نعتبره "مقدمات" لعرفان الشيخ الأكبر, فلذلك أعتبر كتبي في هذا المجال بمثابة هذه المقدمات و لكنها لن تكون مقدمات "ميكانيكية " و العياذ بالله بالطريقة الاكاديمية التي تمحق روح الفكر بجمودها و تنظيمها الرتيب الذي تشعر خلال قراءتك له أنك قد دخلت مقبرة داخل مقبرة, و لكنها ستكون مقدمات عفوية بحيث ينصب قلبي على الورق فينصب من الورق على قلبك, و اعتبر أنني اتحدث معك أنت شخصيا أيها القارئ, نعم أنت, نعم أقصد أنت, لا تقول في نفسك "و لكنه لا يعرفني فكيف يقصدني" بل أقصدك أنت, و على هذا الأساس سيكون هذا الكتاب واسطة الحديث بيني و بينك, و اعتبر أننا في خلوة صوفية

في أعماق وجودنا, و استمع الى صوتي داخل قلبك و بهذا سأنقل لك الحقائق بالروح قبل أن أنقلها لك باللسان العربي و ان كان اللسان العربي هو الواسطة, و لكن تذكر "و ما رميت اذ رميت و لكن الله رمى " فلا تجعل الصورة و الواسطة سبب غفلة عن الحقيقة الجوهرية, و على هذا سيكون الكتاب ان شاء الله. و منها أنه من الناس من يريد أن يعرف شئ عام عن فكر الشيخ الأكبر و لكنه لا يريد الا "أفكارا مركزة مختصرة" و لهذا اخترت كلمات من الفتوحات لها هذه الخاصية, بحيث يمكن ادراجها تحت باب "الكلمات الجامعة" قد تطول و تقصر بحسب المقام و لكن هذا هو المبدأ في الاختيار العام. و أخيرا يوجد من يريد تلخيصا لأهم الكلمات الواردة في الفتوحات, و هذا بالرغم من أنه مهمة شبه مستحيلة لأن الفتوحات كله فتوحات, و لن تجد صفحة واحدة منه ليس فيها أفكارا عظيمة و مهمة, و ليس في فكر الشيخ تكرار و هذا انعكاس للحقيقة التي يذكرها و تقول "لا تكرار في التجلي" فلا يوجد لحظتين متساويتين في الوجود كله, فاذا قلت لك : أنت و أنت. ف "أنت" الثانية, غير "أنت" الأولى. و بما ان الشيخ لا يكتب الا بناءا على تجلي ما, فهذا يعني أنه لا يوجد تكرار في كلامه على التحقيق. و لكن مع ذلك فاني قد اخترت كلمات أعتبرها مفاتح لابواب و ثمار لاجتهادات و خلاصه لمطولات و جوامع لأسرار, و ستكون بنص الشيخ نفسه, اللهم الا في حالات ضرورية أضطر فيها الى حذف بعض ما ليس له علاقة مباشرة بالفكرة المطروحة او نحو ذلك من تعديلات لا تمس الجوهر الذي نريد أن نوصله, و الأصل كما ذكرت هو أن تكون الكلمة هي نص الشيخ نفسه.

و سأبدأ في الاقتباس من بداية الفتوحات المكية الجزء الأول كأصل و قد نستثني أحيانا, و قد نقتبس من كتب اخرى للشيخ, و هكذا بقدر ما يأتي المدد و الفتح سنستمر في كتابة هذه الكتب الى ما شاء الله. و سنجعل كل كتاب مكون من 19 اقتباسا فقط. لأسباب من أهمها أن يكون الكتاب ظاهره قصير مختصر بحيث يستطيع أن يطّلع عليه كل من له رغبة بغض النظر عن مقدار الهمة و العزيمة (الى حد ما طبعا). و سنكتب أولا نص الاقتباس, ثم ننظر فيه بما يفتح لنا مولانا. اذ "انما الصدقات للفقراء" بقدر كرم المتصدق و حاجة الفقير. و المتصدق عظيم و الفقير شديد الطمع, و الله أكبر.

و على ذلك نستطيع أن ندخل في عوالم ابن عربي- رضوان الله عليه....فتعالوا ننظر...

1 (حجاب العزّة دون سبحاته مسدل, و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل)

أول الحياة المعرفة, و أول المعرفة ادراك أعلى مستوى في الوجود, و من هذا المستوى ينبغي التنزل في تدرّج الحقائق حتى يصل العارف الى آخر دركة من أسفل سافلين بوعي الهي و حقّاني و عندها تكون آخر نقطة في الوجود هي عين أول و أعلى نقطة في الوجود اذ الوجود دائرة و أول نقطة في الدائرة هي عين آخر نقطة فيها. فالقراءة ينبغي أن تبدأ من الأعلى الى الأدنى. و هذه هي القراءة السليمة الكاملة الحية الجميلة. و "الله" هو أعلى مستوى في الوجود, و لذلك يكون الله تعالى هو المبدأ و المنتهى, و بالله تفهم الأشياء و تعرف الحقائق و تدرك الأمور. فمعرفة الله مقدمة لبقية المعارف, و حقيقة الله هي التي تفسر وجود و حال بقية الحقائق. من الأعلى الى الادنى, هذا هو مسلك الأنبياء و مسلك كل من وعى و اهتدى. اذ الخلق لا يدل على الحق, بل الحق يدل على الخلق.

هذه هي خلاصة العرفان و الأديان و أساسها المطلق. و الآن لندخل في التفصيل و اثارة التساؤلات و النظر فيها.

أ) كتب الشيخ الأكبر عن الله تعالى " حجاب العزّة دون سبحاته مسدل, و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل" فان كان هذا هو واقع الأمر, و كانت معرفة الله هي مقدمة بقية المعارف و الدالة على بقية الحقائق, فبما أن معرفة ذات الله مستحيلة كما كتب الشيخ, ألا يترتب على هذا أن معرفة أي شئ أيضا مستحيلة, اذ بسقوط الأصل تسقط الفروع, فان كان الاصل معرفة الله و هذه مستحيلة كما ينص العرفاء, و بقية المعارف فروع لها, فبسقوط الأصل تسقط الفروع, و بالتالي لا يكون أمام الناس بل الكائنات كلها الا الجهل المطبق أليس كذلك؟

الجواب: هذا التساؤل له وجه حق و له وجه غير سليم.

أما وجهه الغير سليم, فانه مبني على سوء فهم معنى "المعرفة" عندما يطلقه العرفاء عموما و في "معرفة ذات الله" خصوصا. فان المعرفة في مسلك العرفاء تعني : التوحد الوجودي بين العارف و موضوع المعرفة في أعمق مستويات التوحد. و ليس المقصود مجرد ادخال "معلومة" الى دماغ الشخص. و حتى "المعلومة" عند العرفاء تعني وجود حد

لموضوع المعلومة يميزها عن غيرها, و بناءا على نفي الحد عن الله كذات بأحد الاعتبارات فانهم ينفون حتى امكانية وجود معلومة عن الله تعالى. و لكن بناءا على اعتبار اخر, و قد ذكره الشيخ الأكبر في الفصوص, فان الله تعالى يكون محدود بكل حد. فتعاليه عن الحد لا يعني أنه منفصل عن الحدود, لأن هذا بنفسه يكون "حد" أي يكون الله هناك و تكون العوالم المحدودة هنا, فعندما ننفي الحد الخلقي لله تكون النتيجة هي أن الله محدود بنفس كونه "خارج" عوالم الخلق. و هذا يناقض أصل النفي. و لذلك كتب الشيخ ما معناه أن الله محدود بكل حد, و أن هذا هو المقتضى الضروري لتعاليه عن الحد. و المعرفة هي "اتصال" أو "اتحاد" العارف بموضوع المعرفة, كالمسألة الفلسفية المشهورة التي تثبت اتحاد العقل و العاقل و المعقول. فان كانت المعرفة "اتصال" او "اتحاد" فهذا يعني أن انعدام المعرفة- سواء انعدامها بنقيضها الذي هو الجهل أو بضدها الذي هو الغفلة – فان هذا يعني امكانية وجود "انفصال" او "حد" يميّز بين ذات الله و بقية الذوات في المستوى الأعمق للذاتية, و حيث ان هذا الانفصال و هذا الحد المميز مستحيل في الوجود استحالة مطلقة, فان النتيجة هي أن "معرفة" الله مستحيلة لأن "الجهل و الغفلة" عن الله مستحيلة. (و نحن نتكلم هنا عن الله كذات الوجود المطلق, و ليس الله كالروح الأعلى او النور او القرءان و بقية المصاديق, أي الله كذات و ليس الله كتجليات فتأمل هذا الفرق جيدا فانه مفتاح لابواب و وسيلة حل الكثير من المعضلات). فنفي العرفاء لامكانية معرفة الله تعني نفي امكانية الجهل و الغفلة عن الله أصلا. هذا هو السر الأول.

و السر الثاني هو أن الله (بمعنى الروح الأعلى) عندما أسدل الحجاب و قفل الباب, فانه قصد بذلك أن يجعل الانسان انسان. لان اسدال الحجاب يعني أنه لا يمكن للانسان أن يكون هو الله. فيوجد فرق بين الله و الانسان, و الله سيبقى دائما هو الله, و الانسان سيبقى دائما هو الانسان, و هذا يعني أنه ليس للانسان مقام أكبر من أن يكون "خليفة الله", فمن وصل أو تذكر هذا المقام فقد وصل الى ذروة المعرفة و الدين و الوجود. اذ نهاية كل سعي أن يصل الساعي الى مقامه التام الذي أعدّ له. و كل مخلوق أعدّ و له تمام و كمال, كل بحسبه, و الانسان أعدّ ليكون خليفة الله و قد فطره الله على ذلك. اذ ما ثم في الوجود الا ثلاثة: الله و خلفاء الله و مخلوقات الله. فأما الله فهو الواحد المتعالي رب كل شئ بالسبب الأول, و أما الخليفة فهو الانسان (و الذي اصطلح لاحقا على تسميته "الانسان الكامل" حتى يفرّق بينه و بين الانسان الذي غفل عن مقامه الفطري العالي هذا فسفه نفسه و أضاع حياته و ألقى نفسه في جهنم بغفلته هذه عن علو نفسه) . و أما المخلوقات فهم مسخرين لخليفة الله من قبل الله , و هو قوله " سخّر لكم ما في السموات و الارض جميعا منه ". و قد ضاع الانسان و ضل بأحد عملين: اما أن يطمح أن يكون هو الله, و اما ان يغرق في الكون فيعتبر نفسه مجرد جسم مادي او مجرد عقل فكري فيعتبر نفسه جزء من الكون, و هذا الصنف الاخير الذي جعل نفسه مجرد جزء من الكون بكل المستويات ينقسم الى اقسام أهمها من جعل نفسه مجرد جسم أرضي فحصر نفسه في هذه الدرجة (و هذا هو التوجه المعاصر للأموات عموما) و منهم من جعل نفسه مجرد عقل عالي فحصر نفسه في الملكوت, و منهم من حصر نفسه في السموات و الارض عموما, و هذا أيا كان الأمر فان كل حصر للذات الانسانية بما هي ذات داخل السموات و الارض و من فيهن فانه يعتبر تسفيه

للنفس و ولوج في دركات الجحيم و سلاسل السعير. فمن جعل نفسه تحت جبريل فقد كفر, فما بالك بمن يجعل نفسه تحت فرعون, و الأدهى من يجعل نفسه تحت التراب ! و لا قوة الا بالله. فالانسان في الوسط, لا هو الله و لا هو الخلق, هذا من حيث ما هو انسان و ذات فطرت على مقام الخلافة الالهية. فأطباء الذات الانسانية ينبغي لهم أن يعرفوا كيفية علاج مرضين: مرض ادعاء الالوهية و الربوبية و مرض الانحصار في العوالم المخلوقة. و بالطبع فان كون هذه أمراض يعني أنه يستحيل أصلا أن تتحقق مقتضيات المستمسك بها, و سيكون فيها طمس و ظلم لشئ حقيقي و واقعي. فكل من يزعم بأنه الله (الأعلى) فانه لن يتمكن أصلا أن يظهر مقتضيات هذا التوحد, و قد ذكر الشيخ أن الفرق هو في درجة الالوهة التي هي القدرة, أي الله تعالى له القدرة المطلقة, فكل من يزعم بأنه الله فليظهر القدرة المطلقة و هذا لا يكون. و كل من يحصر نفسه في جزء من اجزاء الكون و عوالم الخلق سواء كان هذا الجزء هو أعلى عليين أو أسفل سافلين فانه سيسعى ليحقق مقتضيات خلافته التي هي فطرته و لكن بمصاديق تتناسب و الدرجة التي حصر نفسه فيها, كمثل من يحصر نفسه في الجسم الارضي فتراه يعشق أن يكون مسلطا على الناس و الأشياء و لا يرى لذة أعظم من العلو على الناس و التكاثر في الاموال و الاولاد و نحو ذلك و كل بحسبه, فالذي فعله هذا التعيس هو أنه- لاشعوريا- نزّل مقتضيات خلافته الى صور تافهة لا تتناسب و عظمة ذاته و علوها, و دائما لن يفلح و سيكون عذابه أثناء سعيه التعيس هذا كعذاب ابي لهب و فرعون و قارون في جهنم (عذاب اليوم والان قبل أي شئ اخر). فمن يزعم بأنه الله أو يسعى الى أن يكون كذلك لن يفلح أبدا لان مقتضيات ذات الله لا يمكن أن تنتقل الى غيره بما هي هي لأن هذا يعني موت الله, و الله حي لا يموت. و من يزعم بأنه مجرد جزء من الكون و عوالم الخلق فانه سيحيا في عذاب فوقه عذاب و تحته عذاب و داخله عذاب و خارجه عذاب و قهر الله محيط بالكافرين. فالقصد و العلم و الحكمة تقتضي أن يكون الانسان كما هو بالحقيقة و الفطرة و هو "خليفة الله" فهو الوسط بين الله و الخلق. الله ربه و الخلق مسخر له. علاقته مع الله عبادة (ذكر و دعاء) و علاقته في أعلى صورها مع الخلق هي الفكر و الانتفاع. و هذا هو معنى قوله "أولي الألباب: الذين يذكرون الله...و يتفكرون في خلق السموات و الارض" فالعلاقة في أعلى صورها لها اتجاهين, اتجاه الى أعلى و اتجاه الى أدنى. أما الاتجاه الى أعلى فهو الذكر, و أما الاتجاه الى أدنى فهو الفكر. فالدعاء يزول, و الانتفاع يزول, اذ الدعاء لا يكون الا حين يوجد موضوع للدعاء و الاضطرار فاذا تمت الاستجابة توقف الدعاء, فالدعاء لا يكون الا عن نقص ما, و بالتالي – و لو نظريا على الاقل بالرغم من أنه متحقق واقعيا- يكون الدعاء عبادة منقطعة عند حد ما. و كذلك الانتفاع كالأكل مثلا فان الاكل انما يكون وقت الجوع فعند الشبع لا أكل, و كذلك بقية أمور الارض مثلا, فالانتفاع أيضا يكون مجرد وسيلة للتفرغ. و بالتالي لا يبقى الا الذكر و الفكر, و هما العلاقة العليا للانسان مع الوجود الالهي و الخلقي. مع الله بالذكر, و هذا لا ينقطع بحال من الاحوال, و حتى ان وصل الانسان الى الفردوس فان ذكر الله هو الفردوس و لا قيمة للفردوس بدون ذكر الله. و العلاقة مع الخلق هي التفكر, و التفكر بنفسه يعتبر علوا على المتفكر فيه, و هذا هو المقتضى الدائم لحقيقة علو الانسان على الخلق كله, بالاضافة الى ان التفكر في خلق الله هو أيضا صلة بالله من حيث أنه ينشئ صلة بين عقل الانسان و عقل الله (بالمعنى الرمزي)

الذي خلق الخلق. كما أن من يدرس بناءا صممه مهندس يكون في صلة مع عقل المهندس بحيثية ما, او الذي يقرأ كتابا لأحد العلماء يكون ممن يتصل بعقل هذا العالم عن طريق فهم كتابه و دراسة أسلوبه و التعمق في أحكامه و أسراره. فالتفكر في خلق الله هو صلاة, بل من أعظم الصلوات, لا تعلو عليها الا صلاة ذكر الله. لان ذكر الله هو صلة مباشرة بالله, و أما التفكر في خلق الله فانه صلة غير مباشرة يكون الوسيط فيها حجابا على الله أي صور المخلوقات. فلا حجاب بين الذاكر و المذكور, و لكن يوجد حجاب بين المفكر و الصانع و هو حجاب المصنوع.

فخليفة الله هو من يذكر الله و يتفكر في خلق السموات و الارض. الذكر و الفكر هما ثمار شجرة الوعي بالخلافة. و عندما منع الله وقوع علمنا بذاته فانه بهذا أراد لنا أن نحقق ذاتنا. احتجاب الله هو ظهور الانسان. و أما ظهور الله فهو موت الانسان. و ما يقوله العرفاء عن "الفناء" فالقصد منه- في احدى درجاته- هو افناء الشخصية الزائفة للانسان, و لا تعني بحال من الاحوال افناء ذات الانسان و ماهيته و فطرته, حاشا. ألا ترى أنهم يقولون دائما عن الفاني في الله أنه "الانسان الكامل" ! فافهم و لا تستعجل. و هذا هو السر الثاني.

أما وجهه الحق, فهو لأنه فعلا بعدم معرفة الله لا يكون الموجود الا الجهل المطبق. و لكن "معرفة " الله هنا لا تعني الاتحاد و الاتصال بالمعنى الذاتي, و لكنها تعني الوعي العقلي بالله. و معرفة الله بالعقل هي معرفة ممكنة بل واقعة بل هي أسمى أنواع المعرفة من هذه الحيثية. طبعا العقل هنا بالمعنى المقدس العالي, و الذي هو عقل خليفة الله, و ليس "عقل" البشر الذي كالانعام بل أضل سبيلا. العقل الذي هو أقدس الموجودات بعد الله و هو من فيض الله و أعظم تجلياته. العقل الذي يدرك المبادئ العليا للوجود كله, و يدرك أحكام الوجود و حقائقه, و يفهم قواعد الخلق و سننه و تدرجه و علاقاته. بداية من الأعلى الى الأدنى. نعم بهذا العقل يمكن معرفة الله, بل لا يوجد "علماء" بالله الا من هذه هي سمتهم. و من الفروق مثلا بين العقل الانساني و السخف البشري, هو أن السخف البشري يقول مثلا "يمكن ان نعرف الله عن طريق النظر في المخلوقات الارضية " فهؤلاء يزعمون بأن النظر في هذه الشمس مثلا ستجعل الانسان يعرف الله ! فيريدون أن يسيروا من الادنى الى الأعلى, و هذا هو الانتكاس في صورة واضحة جدا له. أو مثلا " بالنظر الى وجود أسباب و مسببات فاننا نبني على ذلك أن الله هو السبب الأول في سلسلة الاسباب" و هذا أيضا سير منكوس من الأدنى الى الأعلى. و حاشا لله أن يكون من هو دونه أظهر منه, و من هو من خلقه أجلى منه, و من هو من صنعه دليلا عليه. بل بمعرفة الله نعرف وجود أسباب و مسببات, و بدون الله لا يكون ما يسمى "قانون السببية" الا لغو محض (و هذا اللغو المحض هو بالضبط ما يهرف به من يسمون ب "العلماء المعاصرين" من الماديين و السفليين , فهؤلاء ينكرون الله أو يرون وجوده و عدم وجوده كشئ واحد لا يؤثر شيئا على نظرية المعرفة و لا على اثارها العملية سواء على المستوى الفكري او الجسماني, فعندما حصروا الوجود في درجة واحدة و هي أسفل سافلين الاجسام زعموا بأنه يوجد "اسباب و مسببات" بين الاشياء, و أن هذا هو "الواقع الموضوعي" و هذا ليس الا لغو محض. فمن أين لهم أن يثبتوا حقا بأن كذا هو سبب لكذا, و يجزموا بذلك علميا ؟

بل و على أي أساس أصلا اعتقدوا بانه يوجد أسباب للأشياء ؟ لا يقال بان هذا هو "ظاهر" الاشياء, لان كل من له حظ من العلم يعرف بان "ظاهر" الاشياء ليس بحجة في معظم الاحيان و العلم علوي او سفلي دائما يغوص الى بواطن الاشياء و لا يؤسس شيئا الا بناء على أدلة و براهين تتناسب و موضوع البحث, و من الناحية الفلسفية لا يمكن اثبات وجود قانون السببية بدون وجود الله. فقانون السببية فكرة دينية محضة. و أما الالحاد فانه نظرية فوضوية, لانه يعتمد-كما يدعي على الاقل- أنه يستنبط كل شئ من الألف الى الياء من "العالم المادي فقط" و العالم المادي هذا, باقرارهم , هو "عالم كبير و فوضوي يشبه غرفة مراهق " على حد قول بعضهم, فمن يستمد كل شئ من عالم فوضوي كيف يمكن أن ينتج شيئا غير فوضوي ؟! فأنى له أن يجد النظام و يستنبط نظام- على المستوى الافاقي الطبيعي او المستوى الانفسي الانساني او الاجتماعي- و هو لا يقرأ الا في كتاب العالم الجسماني المادي الفوضوي و الغير مفهوم بنفسه, او هكذا يفترض أن يكون الأمر لو أخلص المادي الى مقتضيات نظريته , و لكن هيهات أن يقوم بذلك لأنه لا علم و لا يحزنون بدون قانون السببية, و قانون السببية يعني النظام, و النظام يعني وجود درجة غير درجة عالم الاجسام و المادة حيث ان هذه لا تفهم الا في ضوء نظام و النظام ليس فيها بل ليس فيها الا الفوضى او لا أقل من جهل و عدم امكانية تأسيس نظرية قوية للمعرفة. و لذلك لم يزل العلماء السفليين هؤلاء يتعجبون من امكانية فهم العالم المادي ! فيقول قائلهم "أعجب ما في هذا الكون هو أننا نستطيع أن نفهمه" او نحو ذلك. و فعلا هو أمر يثير العجب بالنسبة لانسان سفه نفسه و أنكر كل درجة غير هذه الدرجة. و طبعا لن يكون أمام هذا "المتعجب" الا أن يموت و هو يتعجب اللهم الا اذا تذكر و اعترف بحقيقة العالم الأعلى.) فالله تعالى هو الذي يدل على السببية, و ليست السببية هي التي تدل على الله. و كل اعتراف بوجود سببية بين شئ و شئ, مهما كان صغر هذا الشئ بعوضة أو ذرة فما دونها, فان هذا الاعتراف يتضمن مسبقا و باطنيا اعترافا بوجود الله و فعله و تنظيمه. فالسببية صورة الربوبية. و انكار أحدهما يعني انكار الاخر, و الاعتراف باحدهما يعني الاعتراف بالاخر. ففي الحقيقة: كل عالم ملحد هو مؤمن من حيث لا يشعر او من باب "و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا" . و كم من انسان ينكر وجود الله لانه لا يريد أن يعترف بحقيقة وجود درجة أعلى من درجته. و كما قلنا فان الانسان دائما سيكون رقم اثنين, و الله هو رقم واحد. و هذا لا مجال لتبديله و تغييره. فانكار الله لا يكون الا لسانيا فقط. و أما فعليا فان الكل مؤمن بالله و لا يستطيع الا أن يكون كذلك. فالذي يأكل من أجل أن يتسبب الأكل في شبعه هو في الحقيقة يعترف بالله و ربوبيته في نفس سعيه للأكل و ايمانه بوقوع الأثر عند وجود السبب المناسب. و قس على هذا. الله هو أول معروف, و بقية المعروفات تعرف به. و للعرفاء درجات, و حتى فرعون يعتبر من العرفاء و لكنه في درجة هابطة جدا, فكل انسان من العرفاء و لكن العادة أننا لا نسمي الانسان "عارفا" الا اذا بلغ درجة معينة في العرفان, لا أقل أن يعترف بالله قلبا و عقلا و فعلا و قولا. ألا ترى أنه حتى اليهودي الذي لعنه الله بكفره و بلغ أسفل دركة من الكفر و الشرك و التحريف و مع كل ذلك قال الله عنهم "بل لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا" فمع كل ذلك أثبت لهم الايمان, و لكن وصفه بأنه "قليلا". فأصل الايمان ثابت, و لكن درجته تختلف من انسان لاخر, أصل الايمان في الانسان هو من صميم الفطرة و لذلك لا يزول

بالكلية, هذا مستحيل. فعندما نقول " ابرهيم مؤمن " و "اليهودي مؤمن" فان المقصود بكلمة "مؤمن" تختلف اختلافا كبيرا في الجملتين و في الحالتين. و لذلك وقع الاصطلاح على عدم تسمية الانسان بالمؤمن الا اذا بلغ درجة معينة من الايمان, مع العلم أنه في واقع الأمر "مؤمن" و لو كان الله نفسه قد لعنه و أثبت كفره ! فتأمل هذه الحقيقة جيدا لترتقي في نظرك ووعيك.

ب) "حجاب العزة دون سبحاته مسدل". لاحظ ان الحجاب هو من سمات الذات. فالعزة لله جميعا, و أسماءه عين ذاته كما تقرر في محله و كما يؤمن الشيخ الأكبر بذلك أيضا. و لكن الاسم عند الشيخ هو الذات مأخوذة بصفة من صفاتها. فالعليم هو الذات مأخوذة بصفة العلم, و القدير هو الذات مأخوذة بصفة القدرة, و نحو ذلك. و لكن هذا الاخذ لا يعني وجود تمايز في عين الذات, بل يعني وقوع التمايز بسبب استعداد المتلقي لتجليات الذات. فالجاهل الذي يريد أن يتعلم سيقول "يا عليم يا حكيم " فبسبب حاجته و موضوع رغبته و استعداده كان التجلي بهذا الاسم, و لكن في واقع الأمر ليس الا تجلي الذات و انما تتمايز بسبب القابل, اذ الفاعل واحد و القابل متعدد, فالواحد يتعدد بتعدد القابل و ليس بتعدد الواحد نفسه, اذ هذا مستحيل. و الراجح هو أن وجود استعداد معين عند القابل هو الذي يجعله يغفل عن كمال الذات المتجلية, فالتمايز انما يقع بسبب هذه الغفلة التي فرضتها الرغبة المعينه, كالجاهل الذي يريد العلم فلا يرى من الله الا العلم و يغفل عن اللطيف و المجيب و القدير و البديع و غير ذلك من الأسماء الحسنى بالرغم من أنه على التحقيق كلها قد تجلت له و لكنه بسبب ضيق مطلبه يرى ضيق ربه المتجلي له. فرغباتنا هي حدود ربنا . أو لنكون أشد دقة نقول: رغباتنا هي التي توهمنا بمحدودية ربنا. فاذن "العزة" هنا في الواقع تعني رغبة الانسان في احتجاب الله. لأنه كما عرفنا من قبل: ظهور الله يعني موت الانسان. و الانسان الذي يريد أن يحيا سوف يرغب- ولو من حيث لا يشعر في أعماقه- سوف يرغب في احتجاب الله. و أما وقوع الاحتجاب على نفس ذات الله فحاشا و كلا, و من هذا أو ما هذا الذي يمكن أن يحيط بذاته ليحجبها عن غيرها ! لا يكون الحاجب الا أقوى و أوسع من المحجوب, كمثل المراة التي تلبس الحجاب فانها لتحتجب يجب أن تحيط نفسها بشئ بنفس سعتها أو أوسع منها, فما هذا الذي هو بنفس سعة الله او أوسع منه حتى يحجبه ؟! ففي الواقع , الله لا يحتجب, و تجليه لا يتجزأ, و انما يقع التوهم في قلب القابل بسبب محدودية القابل. و رفع هذا التوهم أو التقليل منه يعتبر من أسمى مساعي العرفاء العظماء.

فما معنى تسميته ب "حجاب العزة" ؟ لأن الله أعز من أن يعطي قابلا فوق طاقته. فانه من اللؤم و السقوط و الحقارة و الجهالة أن يكلف القابل فوق طاقته, ألا ترى أن الانسان السليم النفس يحتقر الطاغية الذي يكلف الناس فوق طاقتهم و يجبرهم على أمور لا تتناسب و طبائعهم و قوتهم. ان كان الامداد أقل من الاستعداد فالممد عاجز او بخيل, و ان كان الامداد أكثر من الاستعداد كان الممد جاهل أو حقير, و ان كان الامداد بحسب الاستعداد كان الممد لطيف خبير. و الله لا اله الا هو العزيز الحكيم.

فتأويل قوله " حجاب العزة دون سبحاته مسدل" هو هذا: الانسان يرى من الله بقدر الانسان فقط لا غير. ففي الواقع الحجاب هو نفس الانسان. و لذلك يقول العرفاء " نفسك هي اكبر الاصنام ". و لا يوجد الا مخرج واحد من هذا الصنم و الحجاب و هو المعبر عنه بمقام "الفناء". و لكن الفناء هنا لا يساوق "الانسان الكامل" بل يعني الفناء المحض فعلا. يعني الرجوع الى الحالة "العدمية" (بمعنى عدم المخلوقية, و ليس العدم المحض الذي لا تحقق له أصلا) و هذا الفناء يعني أن لا يبقى أي أثر للانسان, و بالتالي يستحيل أن يكون في حال حياة الانسان سواء كانت حياة جسمانية أو عقلية أو روحية أو عشقية أو اي فرع من فروع الحياة و صورها. فالفناء يعني أن ترفض ان تكون مخلوقا بالكلية, ترفض أن تكون مخلوقا و لو كنت ستكون ملك الملوك و سيد السادة و رب العوالم كلها و لو كنت ستسكن في الفردوس الأعلى في جنأت النعيم بيدك الملك و الخلد و على رأسك تاج العزة و الكرامة و الوقار. أيا كانت حالة الخلق فان الفاني (اي من يرغب في الفناء) يرفضها. فالفناء سير بعكس تيّار الارادة الخالقة. بل هو رفض صريح لها. فهو يرى الخلق كمكر من مكر الله, و ابتلاء من الابتلاءات ليرى الله هل سيفضل الانسان ان يكون مخلوقا عظيما محجوبا عن الله, أو ليس بمخلوقا أصلا من أجل أن لا يكون حجابا لله؟ و الفاني يريد أن يكون الرجل الثاني في هذه المسألة. فهو يرى أن وجوده نفسه يعتبر كفر بالله و اهانة له سبحانه. و لذلك قد تنعكس هذه العقيدة الى حزن و سوداوية قاتمة تحل على قلب العارف الساعي للفناء, و أي حزن أشد من أن تعي أن وجودك هو نفسه حجاب ربك عنك ! بغض النظر عن أعمالك و ايمانك و بغض النظر عن أي شئ, فالأمر سيان سواء كنت فرعون او موسى. أبو لهب أو محمد. امراة لوط أو مريم. مجرد وجودك يعني كفرك. لان وجودك حجاب لربك, فان رضيت بالوجود فهذا يعني أنك رضيت بالكفر بربك. هذه هي خلاصة فلسفة الفناء و لوازمها الحقيقية. و لعل باطن رمز ابليس يشير الى هذا المقام. لأن الساعي للفناء يريد ليس فقط أن يرفع حجاب نفسه عن الله تعالى, بل يريد أن يرفع حجاب الخلق كله عن الله تعالى, فهو يريد أن يدمّر الخلق كله, يريد ان يحرق الخلق كله, حتى لا يبقى الا الله تعالى بلا تجليات و لا صور و لا تنزلات. و من الأعمال التي ترتبت على هذا بالنسبة لهؤلاء هو أنهم نظروا الى قاعدة الخلق على ماذا تعتمد؟ فرأوا أنها تعتمد على وجود أولياء الله. اذ لولا أولياء الله لما خلق الله الخلق و لزال الخلق, "و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون" فالخلق للعبادة, و العبادة تتمثل في الاولياء, فالخلق للأولياء. و بالتالي زوال الاولياء يعني زوال الخلق. و على هذا سعوا الى قتل الاولياء و تدميرهم و قطع طرق ولادة اولياء جدد و معرفة الناس بمثل هذه المقامات و السعي لها. محق الأولياء محق للخلق, و محق الخلق رفع الحجاب, و لهذا يسعون.

و من هنا تأولوا لأنفسهم فقتلوا الانبياء بغير حق, و قتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس, و حولوا الارض الى دار كفر و غفلة و أسسوا لذلك بشتى أنواع الفلسفات و السخافات. طبعا هذا الأمر لا يعرفه الا القلة فقط, و أما عموم الناس فليس لهم حظ من ذلك أبدا و يظنون أن كل "الكفار و أعداء الأنبياء" هم أناس لا حظ لهم من الله تعالى و حبه و السعي في مرضاته, و الواقع أن القلة "الكافرة" غالبا ما تكون ممن تتأول لنفسها و تبرر لعملها بناءا على فلسفة ما.

فاذن الانسان بين أمرين: أن يحيا محتجبا عن الله, أو يرفض الحياة بسبب وجود الحجاب. و بالموت لن يعي الانسان أنه ميت و لن يعي أنه "غير محجوب" عن الله. فكأن الانسان العارف بين أن يحيا و هو واع بالحجاب أو يموت. و من العرفاء من رفض خيار الموت لسبب أو لاخر كأن يخضع لارادة الله الخالقة و يرى أن هذا الخضوع و الطاعة الوجودية تقتضي منه أن يرضى بالحياة, و لكنه أيضا رفض الحجاب فأوجد لنفسه حل و مخرج و هو "السكر". أي السكر حتى يغيب عن الوعي بالحجاب أثناء حياته. و من هنا انطلقت كل فلسفة العشق و الخمر (كقول القائل "أنا من اهوى و من أهوى أنا) و السكر (كقول القال "كأنما خمر و لا قدح و كأنما قدح و لا خمر) و الوجد و الصعق و الشطح و السماع (كما قال مولانا جلال الدين ما معناه: هيا الى السماع ، فان فتنة الكونين قد اشتعلت) و الرقص (كما قال مولانا جلال الدين "من لم يعرف قوة الرقص لا يفنى في الله" او كما قال) . و الحق يقال: ان هذا هو الطريق الأسلم للحياة للعارف. و خمرة العرفاء هي ذكر الله و مجالسه و حلقاته. فكأن الله تعالى أهدى كأس خمرة من عنده لكل عارف خضع لارادته الخالقة و قال له "كما أنك رضيت بأن تحيا طاعة لي, و حزنت بسبب احتجابي عنك, فخذ هذه الخمرة و اشرب منها حتى تسكر فلا تشعر بالفرق بيني و بينك ". فالله الله الله لا اله الا الله.

ج) " و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل ". هذا يعني أنه يوجد باب لمعرفة ذاته ! و كل باب مقفل يمكن أن يفتح. و لو كانت المعرفة مستحيلة بالكلية لما وجد "باب" لها أصلا. ثم من جانب اخر, ألسنا نعرف بوجود الذات و بأنها واحدة و مطلقة و فاعلة و نحو ذلك من شؤونها المقدسة و المتعالية, و الشيخ نفسه يعترف بذلك كله, أليست هذه المعارف داخلة ضمن "معرفة ذاته" أيضا ؟ و من جانب ثالث, ألسنا نعرف بان " الوقوف على معرفة ذاته مقفل " و انما ذكروا قفل الباب لاسباب معينة متعلقة بالذات المقدسة و الذات العارفة, كمثل قوله أنه "لا مناسبة بين الله و خلقه" و المعرفة المتعلقة بين اثنين لابد ان توجد مناسبة بينهما بنحو او باخر و بهذه المناسبة تحصل المعرفة, و كمثل ما ذكرناه قبل قليل من كون التفكير في الشئ يعني تعاليا عليه و بهذا التعالي تحصل الرؤية للشئ و معرفته بهذه الحيثية و بما أنه لا يوجد أعلى من الله تعالى فاذن لا يمكن لغيره أن يفكر فيه او يعرفه بهذا النحو, و غير ذلك من أسباب ذكروها لامتناع وقوع المعرفة على ذات الله تعالى و تقدس, و لكن مع ذلك أليست هذه كلها "معارف" متعلقة بالذات المتعالية و بالوجود و بأحكام الخلق, أفليس هذا تناقضا اذن اذ نقول أنه لا يمكن معرفة ذاته و الواقع أن حكمنا هذا نفسه يعتبر نوع من أنواع المعرفة ؟ و جانب أخير, ألسنا نعرف الأسماء الحسنى و أسرارها و شؤون تجلياتها في العوالم و مقتضياتها, و هل يوجد مثل الشيخ الأكبر في تفصيل أسرار الأسماء الحسنى و كتابه العظيم الفتوحات المكية هو خير شاهد على ذلك , فكيف يقال أن "باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل " ؟

الذي يظهر لي هو التالي : المقصود بمعرفة ذاته تعالى في هذه الكلمة الأكبرية هو أحد أمرين أو كلاهما, الأول هو معرفة ذاته بمعنى وجود وعي باطلاقية الذات في عين هذه الاطلاقية. و هذا كما عرفنا يعتبر مستحيل في الوجود, لأن طلما أنك "موجود و مخلوق" فهذا يعني أنك أنت بنفسك حجاب على اطلاقية الذات المقدسة, بغض النظر عن مدى صلاحك و عصمتك و قداستك فحتى لو كنت أقدس من أقدس الأولياء و الأنبياء و الملائكة العالين, فان مجرد وجودك و تحققك هو حجاب, و بالتالي لا يعرف الله في عوالم الخلق الا بنحو التقييد, و أول تقييد هو تقييد ذاتك نفسها, و من هنا يقول الشيخ الأكبر أنه انما يعرف العارف الله بحسب العارف نفسه و ما تعطيه صفاته و استعداداته لا غير فلم يصف الله الا بصفة هي فيه من قبل او شئ تعطيه ذاته بنحو من الانحاء. و لكل تعي اطلاقية الذات الالهية- وعي وجودي و ليس وعي فكري- يقتضي توفر شرطين متناقضين: أن تكون موجودا لكي تعي, و أن تكون معدوما لكي لا تحجب و تقيد ! و بما أنه يستحيل أن تكون واعيا معدوما, لان وعيك يعني وجودك, فالحاصل هو كما قرر الشيخ الأكبر "باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل ". اذ الباب موجود (أن تكون معدوما) و لكنه مقفل (لان وعيك يقفله !) فالوعي بالوجود هو أكبر و أخفى حجاب عن الوجود. فالسكران هو العارف الوحيد على التحقيق.

و الثاني هو معرفة الذات بمعنى انتهاء هذه المعرفة. أي كما أنك تعرف وجود كأس ماء أمامك فتحيط بهذا الكأس و تدرك ماهيته و اثره و امكانيته و تعرف تركيبه و باقي شؤونه, و بذلك تكون معرفتك بالكأس قد "انتهت". و هذا ما يمنع وقوعه الشيخ- قدس الله سره. فالمعرفة هنا بمعنى استمرارية التجليات و العطاء الالهي و الوعي بهذه التجليات و العطاء. و هو من قبيل ما جاء في القرءان المبارك " قل لو كان البحر مدادا لكلمت ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمت ربي و لو جئنا بمثله مددا". ففي الحقيقة, سد باب المعرفة بذات الله يعني الايمان بلانهاية تجليات و عطاء الله. و من العجيب أن يكون "السد" في الظاهر هو "اللانهاية" في الباطن. فالايمان بالانسداد هو عين الايمان باستمرارية الامداد. وهذه الاطلاقية في الذات متعلقة بالمخلوقات و الموجودات. فهي الاطلاقية النسبية, اذ كل ما تعلق بما سوى الله فهو نسبي, و الأمر "نسب و اضافات" كما يقرر الشيخ. فالمعرفة هنا هي القبول و التحقق و الاخذ و التعبد و التأله و كل شؤون علاقة الانسان بالله و علاقة الله بالانسان, فهذه العلاقة مطلقة لا تنتهي أبدا. و لو تم الوقوف على معرفة الذات لكان اللازم من ذلك هو وجود حد لذات الفاعل سبحانه او لذات القابل من حيث القبول الشخصي او كلاهما. و هذا ممتنع كما يقرر الشيخ.

و أما بقية المعارف المتعلقة بالذات الالهية فانها ممكنة وواقعة فعلا و هي رأس مال العرفاء و الانبياء. فالمعرفة بالوجود و بالسمات الذاتية (كالأحدية) و بالسمات النسبية (كالخالقية و الرازقية) و فروع هذه المعارف و التي هي كل المعارف الممكنة في عوالم الخلق من أعلى عليين الى أسفل سافلين فهذه كلها حق و صدق و تحقيق علمي مطابق لواقع الأمر في نفسه. و الحمد لله . فانما المنفي و الممتنع هو الوعي الوجودي باطلاقية الذات في عين هذه الاطلاقية, و انتهاء عطاء الله و قبول الموجودات و المخلوقات. و باب شم رائحة الاطلاقية الالهية هو السكر و

العشق و التأله, و باب زيادة حصول الخير و الفضل و التنزل من خزائن الله الى العباد هو بالدعاء و الشكر و تثوير الارض و السماء بالعمل و البحث و الاستعمال الانفع و الاسلم.

من خصائص كتب الشيخ الأكبر سلام الله عليه هو أنه يفسّر بعضها بعضا, فما أجمل في موضع فصّله في مواضع, و قد شبّه الشيخ الفتوحات بالقرءان الكريم في بعض الخصائص, و قد ذكر السيد حيدر الآملي-قدس سره- أن لفصوص الحكم و الفتوحات المكية خصائص الهية و نبوية و غيبية , و هذا مما لا ينقضي منه العجب. على أية حال, بناءا على أصل ان ما اجمله الشيخ في موضع يكون قد فصّله في اخر, فاننا نرى فكرة الباب المقفل هذه توجد أيضا في موضع اخر من الفتوحات و هو الباب الخامس و الثلاثون. فعندما يتحدث الشيخ عن الفرق بين الصفات النفسية و الصفات المعنوية, يصل الى مرحلة في الكشف و يتوقف عندها اذ يقول " و هنا باب مغلق لو فتحناه لظهر ما يذهب بالعقول و يزيل الثقة بالمعلوم...فتركناه مقفلا لمن يجد مفتاحه فيفتحه " , و في موضع اخر من نفس الباب يكتب- قدس سره" و لم ينف سبحانه عن ادراكه قوة من القوى التي خلقها الا البصر فقال "لا تدركه الابصار" فمنع ذلك شرعا, و ما قال: لا يدركه السمع و لا العقل و لا غيرهما من القوى الموصوف بها الانسان, كما لم يقل أيضا أن غير البصر يدركه بل ترك الأمر مبهما و أظهر العوارض التي تعرض لهذه القوى في معرض التنبيه..".

أقول: نرى هنا ان قول الشيخ عن أمرما بان له "باب مقفل" قد يعني أن كشف هذا الباب و فتحه سيؤدي الى ضرر ما خاصة بالنسبة لمن لا يملك الاستعداد لمثل هذا الكشف, فيترجح لدى الشيخ أنه عليه أن يترك هذا الباب مقفل "فتركناه مقفلا لمن يجد مفتاحه فيفتحه" و هذا يعني أن كل باب مقفل له مفتاح يفتحه, و أما لو كان الامر ممتنع بالأصل لما وجد باب أصلا كما ذكرنا قبل قليل. و أما من يجد المفتاح او لنقل "يهبه الله" المفتاح, اذ الشيخ لا يعتد كأصل الا بالعلم الناشئ عن الكشف و الوهب الالهي "من لا كشف له لا علم له" كما كتب رضوان الله عليه, فمن يوهب مفتاح باب مقفل فانه سيكون بالضرورة ممن له استعداد او قبول لرؤية ما وراء الباب, اذ السنة الالهية هي ان "ورود الامداد بحسب الاستعداد" كما قرر الحكيم ابن عطاء الله رحمه الله و غيره من العرفاء كالشيخ أيضا. فيبنى على هذا ان معرفة ذات الله لها باب مقفل و لكن لهذا القفل مفتاح, فمن أوتي المفتاح عرف الذات. و في مسألة معرفة ذات الله اختلف العرفاء اختلاف يظهر لي أنه اختلاف تقية أو اختلاف بحسب النسبة و الدرجة, فمنهم من منع حتى أن يكون للنبي الأعظم عليه السلام معرفة بذات الله تعالى و منهم من جوز ذلك و منهم من حكم بأن النبي كان يعرف الذات المقدسة. و من هنا تفرعّت المسألة الى معرفة الأولياء. فيوجد أيضا نفس الاختلاف, و من يرى بأن كل ولي يمكن أن يحصّل ما عند كل نبي بحكم الوراثة أو غير ذلك فانه جوّز ذلك أيضا بل حكم بوقوعه بنحو او اخر. و هذا الاختلاف قد يكون سببه التقية التي اضطر اليها الاولياء على مر العصور بسبب الطغاة و الطغام من البشر الذين أركسهم الله بما كسبوا و طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون, او بسبب النسبة

و الدرجة بمعنى أنه بالنسبة لبعض الناس الذات المقدسة غير معروفة و بالنسبة لغيرهم معروفة فعبّر بعض الاوليا ء عن رأيه بدون أن يظهر سبب رأيه او على من يتوجه الحكم بالجهل او المعرفة فظن من لم يكن من أهل هذه الطريقة الشريفة أن رأي هذا الولي او العارف قاطع جازم مطلق, فعندما ينظر في رأي ولي اخر او عارف اخر يناقض رأي الاول في الظاهر و المدلول فانه يبدأ يستنتج استنتاجات غريبة من قبيل تدليس عرفاء الصوفية و مخارقهم- و العياذ بالله. و الحق الذي نشهد به هو أن الاوليا ء لا يختلفون أبدا, كما قرر ذلك الشيخ الأكبر مرارا "ليس في طريقتنا خلاف" أو نحو ذلك. و لذلك الجمع بين كل كلماتهم و ارشاداتهم جائز بل واقع و كل منهم ينطق بحسب ظروف خاصة و بحسب جمهور خاص و ما يناسب ذلك و بحسب مقتضى التربية الشريفة للمريدين و الأصحاب. و هذا يشبه ما يرويه أرباب الاحاديث النبوية عن أن النبي عليه السلام سئل عن أفضل الاعمال عدة مرات فأجاب بعدة أجوبة مختلفة في الظاهر, فمرة يقول "بر الوالدين" و مرة يقول "الجهاد" و مرة يقول "الصدقة" و نحو ذلك, فمن لا يفقه من الامور الا سطوحها و جلودها فانه يبدأ في السعي الى الطعن في بعض هذه المرويات لصالح الاخر, و لكن من أوتي فهما في علم النبوة و الولاية فانه يدرك أن الكل صحيح و لكن كل واحدة صحيحة بالنسبة لظرف معين و شخص معين في مرحلة معينة. و كذلك هنا في مسألة معرفة ذات الله تعالى. بل ان التحقيق يعطي أن معرفة ذات الله تعالى هي أول المعارف و هي معرفة "بديهية" و لذلك مثلا عندما يكتب الفيلسوف الالهي عن الوجود فانه يقول أن الوجود مفهوم بديهي لا يوجد أوضح منه أو أظهر منه حتى يكون معرّفا له, فعلى اعتبار أن "الوجود" هو "الله" من حيث المدلول و الواقع فان معرفة ذات الله عندها تكون بديهية و كل أقسام مباحثها العقلية ضرورية. و هذا فضلا أن كون الله تعالى هو مصدر كل وجود و لا أصل و مبدأ غيره فانه بالتالي يكون معروفا بالبداهة لكل الموجودات, اذ ان كل الموجودات فيه و منه و له و اليه و به, فان لم تكن من هذه سمته و حقيقته معروفا فمن يا ترى هو المعروف !

و لذلك في الاقتباس الثاني يقرر الشيخ ثلاثة أمور: الاول ان امتناع ادراك الله بالبصر هو منع شرعي. و الثاني هو انه بحسب مفهوم المخالفة و بسبب عدم ورود منع شرعي للادراك بباقي سبل الادراك كالسمع و العقل فان هذا يترك الباب من هذه الحيثيات مفتوحا. و الثالث هو أنه لم يرد في الشرع اثبات لامكانية الادراك بهذه الطرق الأخرى غير البصربل "ترك الأمر مبهما". فمدار هذه الثلاثة على آية "لا تدركه الابصار". و لكن حتى في هذه الاية لا يوجد قطع ب "انعدام" المعرفة مطلقا, بل كل ما فيها هو نفي تمامية الادراك, و كلمة "درك" في اللسان و الاستعمال عامة تشير الى "الاحاطة" بالشئ, كما أنك مثلا اذا نظرت الى كأس موضوع أمامك فانك تكون مدرك له, و لكنك اذا نظرت الى السماء فوقك فانك لا تكون "مدركا" لها لانك لا تراها كلها من أولها الى اخرها بل ترى جزء منها فالوعي حاصل و الادراك الجزئي حاصل و ان كنت "لا تدرك" السماء. فعلى هذا الاعتبار يكون قول القرءان "لا تدركه الابصار" يعني عدم الاحاطة بالله, و هذا مفصّل في القرءان أيضا- كالعادة- كما في قوله " و لا يحيطون به علما ". و عدم الاحاطة بالله شئ و عدم المعرفة بالله شئ اخر تماما. لان الاحاطة تعني أن يكون المحيط أكبر من المحاط. و بما أن الله هو الكبير المطلق و كل ما سواه اجزاء فقط, فان البديهي هو أنه لا يمكن لأحد

على الاطلاق أن يدرك الله تعالى. فالاصغر لا يحيط بالاكبر. و لذلك قال " و لم يكن له كفوا أحد ". و لكن هذا لا ينفي العلم بالله و لا ينفي المعرفة بالله بل حتى لا ينفي ادراك الله – بمعنى الوعي به و بحقيقته– و انما ينفي الاحاطة الادراكية به. فمعرفتنا العقلية أو الوجودية بان الله مطلق, لا يعني أننا أصبحنا أكبر من الله فنحيط به, بل يعني أننا أصبحنا على وعي بهذه الحقيقة التي نحن منها و بها و فيها و اليها.

فخلاصة هذا هي : معرفة ذات الله ممكنة. و أما طريقها و من يمكن أن يوهب هذه المعرفة فهذا موضوع اخر. و لكن أصل المعرفة بالذات الالهية ممكن. و باب معرفة ذاته مقفل و لكن له مفتاح, فاسألوا الله هذا المفتاح. لان "عنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو " فمن شاء أن يطلبها فليطلبها منه هو. اذ انما أخبرك بانحصار علمها به حتى تعلم من أين تطلبها. فتأمل.

د) " مسدل..مقفل " ما هي الدلالة النفسية و الروحانية لوجود هذا الغموض و هذه الحيرة ؟ ما الذي يدفع العارف الى تقرير مثل هذا الانسداد و الحكم بانعدام المعرفة الاحاطية بل بوجود الجهل بما وراء الحجاب و خلف الباب ؟

الذي يظهر هو أن الانسان يحتاج الى وجود غموض و أسرار في حياته. و ينجذب الى مثل هذه السرّية العرفانية.

لان المعرفة المحيطة تعني أن السعي قد انتهى و ان وعاء القلب قد امتلأ, و بالنسبة للانسان: الامتلاء و الاشباع التام يساوي الموت. و لذلك نرى حتى على المستوى الدنيوي الانسان يشتهي شيئا و يرى كأن حصوله على هذا الشئ سيعني له السعادة التامة, و ما ان يحصل عليه حتى يبدأ بريقه يخفت و عظمته تضعف و نشوته تذبل و أخيرا يمل منه بل يراه عبئا عليه يتمنى الخلاص منه و يرى السعادة في الخلاص منه . و هكذا مثلا على المستوى العقلي نرى الانسان يرغب بشدة معرفة شئ ما و يسعى له و يستمتع بالسعي له حتى اذا عرفه و أحاط به أصبح يجد معرفته له شيئا بديهيا طبيعيا فيبدأ في السعي لمعرفة شئ جديد و هكذا. فالسعي للمحبوب محبوبا اكثر و اكبر من المحبوب نفسه. و لهذا الانسان بدون الايمان بالمطلق يعني التحول الى مسخ معذب. و لهذا قرر العرفاء وجود مستوى في الوجود مطلق اطلاق تام, بحيث يكون كأمل و روح تدفع الانسان للسعي و العمل و الحب و الجمال, على أمل أن يقترب من هذا المطلق و يشم رائحته و لو من بعيد, و يطلع على شئ منه و لو من وراء حجاب كمثل الرجل الذي يشتهي امراة و يعشقها فيلتذ بمجرد رؤيتها أمامه و لو كانت تلبس السواد و تتحجب به اذ رؤيتها من وراء حجاب خير من عدم رؤيتها بالمرة. فالتعريف العرفاني الحقيقي للانسان هو : الكائن الذي يسعى للمطلق. و أما بقية الكائنات فيظهر أنها تكتفي بالقيد الذي وجدت فيه و حسبها هذا. فان كان السجن هو رمز الحياة الانسانية فان ذكر الله هو باب الهروب و الانفكاك من هذا السجن.

و لذلك كان عاصر الخمر هو سبب خروج يوسف من السجن و لقاء الملك, و ليس صاحب الخبز , فصاحب الخبز الذي لا يعرف من الوجود غير القيد الظاهري الذي وجد فيه (في هذه الحالة الانسان الذي رضي بالدنيا و أسفل سافلين

او حتى المنحصر في عالم الفكر) لا يمكن أن يحرر نفسه من السجن فضلا عن أن يحرر غيره, بل مثل هذا ليس له الا أن يصلب و يعذّب فيعتبر الاولياء الاحرار بحاله و يغوصوا في عقليته حتى يعرضوا عنها و يفروا منها "فتاكل الطير من راسه", و اما أهل التأله و العشق و الذكر فهم براق الاسراء من سجن القيود الى مطلق الوجود, تبارك و تقدس اسمه.

و على هذا يمكن اعتبار "الخمر" رمز الانسان الحر. و يوجد نوعين من الخمر, خمر منهي عنها و خمر الجنة, أما الخمر المنهي عنها فهي كل ما يلهي عن ذكر الله و يكوّن حجابا بل حجبا على قلب الانسان أيا كانت صورة هذا الخمر, فقد يكون خمرا منهي عنه بالنسبة لانسان و يكون مباحا لانسان اخر بحسب الحال و الظروف, فقد توجد فكرة أو فعل ما يولد عداوة و بغضاء و يصد عن ذكر الله و الصلاة, و لكن نفس هذه الفكرة او الفعل لا تؤدي الى ذلك, فتكون خمرا منهي عنها بالنسبة للأول و ليس للثاني, و قس على هذا, و بهذا الاعتبار يكون مقصود كلمة "خمر" من الخمار التي هي الحجاب و التغطية أي تزيد من احتجاب الانسان عن الله و تغطي على الحقائق المقدسة. و لكن خمر الجنة ليست كذلك, بل هي ترفع الحجب و تكشف الغطاء, على اعتبار أن "عدم الوعي" الذي يتولد من الخمر يعتبر رمزا على "عدم التفريق" و بما أن كل تفريق هو من عوالم القيود و الاغلال, فاذن عدم التفريق يعتبر من عالم الوحدة المطلقة و المتعال, و لهذا يقال عن الصور التي تؤدي الى هذا بأنها "خمر". فالخمر التي تؤدي الى حجب منهي عنها, و الخمر التي ترفع الحجب قدر الامكان مأمور بها, و هي عيش العرفاء و قوت الأولياء.

و بالنسبة للبعض, يكون الايمان بالسرية العرفانية وسيلة لزيادة كبته لمخبوءاته النفسية. وهذا يكون فقط في حالة من لمن يثوّر ما في نفسه كلها و يرى ما تشكل فيها من رغبات و عقد و رؤئ منذ القدم و الصغر, و بالتالي لم يتحرر من هذا كله عن طريق الوعي بها و باصولها. فمثل هذا الغافل المريض قد ينجذب الى العرفان ليس من باب الانجذاب "للحقيقة" بل من اجل الفرار من "حقيقة". فكبت ما في أعماق النفس بوعي او بغير وعي مباشر يؤدي الى مثل هذه الحالة. و قد يؤدي الى عكسها أيضا في حالات أخرى, فمن الناس من يفر من العرفان بسبب تشديد العرفاء على أهمية الغوص في النفس و الوعي بكل صغيرة و كبيرة بها, و بما ان هذا الكابت لا يريد أن يعرف ما في نفسه و يعترف به- لا أقل يعترف به لنفسه- فانه سيكره التأمل في نفسه و الغوص الى جذورها و مواجهة رغباته التي تكونت في مختلف مراحل عمره الارضي كالطفولة و ما بعدها, فانه لذلك سيكره كل مذهب و طريقة تدعو الى مثل هذا الوعي. فالعرفان قد يكون وسيلة بيد الكابت و قد يكون عدو أيضا لكابت اخر. و العامل المشترك بينهما هو أنهم يرون العرفان كمجرد "وسيلة" و ليس كغاية في ذاته. و هذه هي العلامة التي يعرف بها العارف الحقيقي من العارف المريض : المريض يتخذه كوسيلة و لا يكون من الواعين بانفسهم, الحقيقي يراه كغاية و يكون من الواعين بأنفسهم. فانظر أي الاثنين أنت. و من اتخذ العرفان كوسيلة فهو دائما مريض. و هي علامة مرضه. و قد يظهر اتخاذه له كوسيلة بطرق اخرى, مثلا كأن يقول او يعمل على اساس مقوله "يجب أن لا ننشر من

المعارف الا ما يوافق مصلحتنا الدنيوية" و هو التوجه السائد لكثير من الذين يسمون ب "الدعاة" في هذا العصر المظلم. بل و منهم من يكون ممن يعرف بالتصوف و اتباع طريقة العرفاء, و لكنه مع ذلك يختصر التصوف و العرفان الى ما يسمونه "احسان و تواضع و الابتسام...الخ" من هذه التخلقات العاطفية السطحية, و كأن العرفاء قتّلوا و شرّدوا و صلّبوا و سجنوا و ذبحوا و طوردوا و افتقروا و حوربوا على كل المستويات فقط لأنهم كانوا يعلمون الناس أن يكونوا متواضعين و يتبسموا في وجه الناس و يتصدقوا و يبكوا من الخشوع حين يصلوا !! فمثل هؤلاء الذين خانوا أمانة التصوف في هذا العصر المظلم قد أضروا كثيرا بالسعي لنشر الطريقة بين الناس.

ان التصوف ليس الا انعكاسا للعرفان. التصوف سلوك و العرفان عقل. التصوف ارضي و العرفان سماوي. فلا تصوف بدون عرفان, و التصوف بدون عرفان انما هو نفاق في نفاق. أولا العرفان و تلقائيا و بدون تكلف يتولد التصوف. فلا يوجد "دعوة الى التصوف" و لكن يوجد " تعليم للعرفان" بشتى وسائل تحصيل هذه المعرفة المقدسة و التي لاشك أنه يوجد لها بعد "عملي" و لكنه في الغالب الأعم بعد عملي فردي انعزالي. فأولا يرجع الانسان الى وعيه العالي بالله تعالى و الحقائق على سبيل الكشف و الشهود الذاتي الفردي. ثم بعد ذلك قد تنعكس معرفته هذه و تفيض على جسمه و ظاهره و حياته الاجتماعية. فمن لا يعرف الله في علوه لا يعرف الله في تجلياته. و كل خلق من أخلاق التصوف انما هو القشرة العملية لحقيقة أو حقائق عرفانية. فمن لم تكن هذه الحقائق كامنة فيه فان عمله بهذا الخلق لا يكون الا جثة ميتة لا روح فيها, هذا على فرض أنه استطاع أن يعمل بها فعلا, و من هنا بحّت أصوات أنصاف الدعاة هؤلاء و لم يستطيعوا أن يوجدوا نتجية و ثمرة حقيقية شاملة اللهم الا قليلا شاذا. و ذلك لأنهم بنوا دعوتهم على أساس حجب الحقائق عن الجماهير و اكتفوا بالشق العملي لمعرفة الله تعالى. و أما حجبهم للحقائق عن الجماهير فانهم بنوه على أسس مختلفة, منها أن الداعي نفسه قد يكون جاهلا بها ، و فاقد الشئ لا يعطيه. و منها التقية و الرغبة في تسويق دعوتهم, و ذلك لأن العرفان و التصوف قد تعرض لهجوم شرس من قبل من طمس الله بصيرتهم و حرموا خير الحكمة العليا و الحب المقدس, فاسودت وجوههم و اصبحت أصواتهم من أنكر الاصوات, و لكن بسبب توفر موارد مالية عندهم أو نفوذ سياسي و جماهيري و اعتقاد الجماهير أن هؤلاء هم رموز دين الله و هم الرموز فقط لا غير, فان عقلية الجماهير أصبحت عموما ضد التصوف و خصوصا ضد العرفان, فعندما جاء هؤلاء الدعاة و أرادوا التسويق لبضاعتهم نظروا الى الفئة التي يريدون أن يبيعوها منتجاتهم, فوجودها ممن تصدق عليهم نظرية "الجماهير حمير" , و من سمات الحمار أنه لا يفقه الفكر العالي و النظريات المتعالية بل يجدها "خرافات و تجريد لا قيمة واقعية له " و بالتالي تنشأ سمته الأخرى و هي أنه لا يفقه الا ما يتعلق بالعمل الارضي الجسماني–و حتى هذه لا يفقهها. فجاء هؤلاء الدعاة و صمموا لهم ثوبا يناسب هذه العقلية – و لنقل "الدماغ" للدقة. فقللوا قدر الامكان من الجرعة المعرفية التي أسس عليها التصوف, و اكتفوا مثلا بشئ من حياة النبي و تأثيره في الوجود, و شئ من حضور الله في كل مكان, و شئ من القضاء و القدر و عناية الله بالبشر, و شئ من مقامات الصالحين, و شئ من أهمية الزهد في الدنيا (بالرغم من أن الزهد في الدنيا أصبح من المواضيع المستهجنة عند الكثير منهم فانه ضار بالتسويق لان الجمهور عموما دنيوي بحت, بل اني قد سمعت قبل فترة

أحدهم يدعو الى الدنيا بالمعنى السفلي لها على أسس قرءانية و قصصية بل و انه استشهد بقصص يقصها الملاحدة لتسلية أنفسهم بالدنيا. و لا يفهم هذا الداعي الأرعن أننا لو أردنا هذه الدنيا التي يدعو اليها لما احتجنا اليه و الى دينه أصلا. فتأمل.) و على هذه "المعارف" يقيمون دعوتهم الى "الاخلاق" الحسنة كالتواضع و الاحسان الى الناس و نحو ذلك. و بما أن هذه الاخلاق في الظاهر هي مما يوجد نصوص دينية قرءانية و روائية تؤديها, و هي نفس النصوص التي يستند اليها أعداء التصوف أصلا في الغالب الاعم, و بذلك استطاعوا أن يظهروا أمام الناس على أنهم "أهل اسلام سلفي" أيضا !! و هذا اجرام في حق العرفاء و الصوفية في كل العصور. فمن أراد أن يدعوا فليدعوا حقا أو ليصمت. و أما الارتزاق بالدين و الطرق المقدسة فان صاحبه سيجد شرا في العاجل و الاجل و العياذ بالله.

ان العرفان كان ثورة, و هو اليوم ثورة, و سيظل دائما ثورة. فمن كان ثائرا حقا فليقم به, و من أراد خبزا فليتكسب كما يتكسب الناس. و ان العرفان هو أعظم ثورة يقوم بها انسان, و ليس ما يسميه الهمج بالثورة الا مظهرا مؤقتا لا يلبث البشر ان يخسروا ثماره عما قريب, لان بواطنهم واحدة و القاعدة و السنة الالهية تقضي بأنه "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" و هذا يعني أن كل تغيير ظاهري لا يقوم على تغيير باطني, هو مجرد تغيير سطحي مؤقت و سيزول و يذهب جفاء كالزبد. و لذلك لن تجد عارفا يسعى الى الاصلاح بعنف أبدا. لأن العنف الظاهري- ان لم يكن لازالة عنف أخر معتدي يحجب عرض الحقائق- فانه ليس الا من باب تغيير الظاهر بغير تغيير الباطن و هو في حكم العدم و الفشل. الكلمة هي الثورة. و لذلك سخّر من يجدون مصالحهم في موت الناس و جهلهم سخّروا جنودهم و دعاتهم الى التقليل من شأن الكلمة في وعي الناس, فأصبحنا نرى مقولات مثلا – و قد تصدر من رجال دين الله- يقولون "لا نريد كلاما نريد تطبيقا على أرض الواقع ". و "لا نحب الكلام نريد أن نرى نتائج واقعية " و نحو ذلك من لغو خصوصا عندما يظهر ممن يدعي أنه ممثل لدين الله تعالى و داع اليه. و العجيب أنه حتى الحكومات الطاغية عندما نشرت مثل هذه المقولات, فانها لم تلتزم بمضمونها. ألا ترى أنهم يمنعون دخول بعض الكتب الى بلادهم ! ألا ترى أنهم يمنعون قيام بعض الخطباء و الدعاة في مساجدهم و أماكنهم عموما ؟ ألا ترى أنهم يمنعون ظهور بعض القنوات الفضائية عندهم و يحذرون أبناءهم من الاستماع الى فلان و القراءة لعلان ؟ فلو كان الكلام فعلا لا أثر له و أن صاحبه ليس الا " كلمنجي " لا وزن له في "الواقع" فلماذا لا يتركون كل من يريد أن يتكلم ليقول كل ما يريد ؟ هو مجرد كلام لا قيمة "واقعية" له فاتركوه ان كنتم فعلا صادقين . و لن يفعلوا ذلك أبدا. لأنهم يعلمون جيدا كما يعلم كل من له عقل متدبر أن الكلمة هي أقوى ما في الوجود الاجتماعي خصوصا. و الكلمة هي الوسيلة التي بها تصبح الدولة لها شكل معين و في أدمغة شعوبها قيم معينة و خرافات معينة ايضا (اذ لكل دولة أصنامها و لكل سلطة خرافتها) و هذه كلها انما تتم بالكلمة كأصل. كلمة واحدة يطلقها فرد واحد في دقيقة واحدة يمكن أن تؤثر على الناس جميعا لقرون. ألا ترى أن كلمة صدرت من النبي مثلا قبل أربعة عشر قرنا لا تزال الى يومنا هذا تؤثر و على أساسها يقيم بعض الناس موازين التبري و التولي و المحبة و المعاداة. و أما بالنسبة لجنود فرعون, أقصد رجال الدين المرتزقة, الذين يستسخفون قيمة الكلمة و الكلام,

فانه ليس لنا لكي نجيببهم الا أن نذكرهم بحقيقة مهمة جدا يظهر أنهم من شدة عماهم لم يستطيعوا حتى أن يروها, و هي ان الله ربهم (هكذا المفترض) لم ينزل صورة و لم ينزل صوتا و لم ينزل "تطبيقا عمليا" و لم ينزل الا شئ واحد لا ثاني له و هو "كلام" . فان كان الكلام ليست له الاولوية فان هذا طعنا في الله تعالى من الناحية الدينية و هو طعن من النوع العميق جدا. و السبب الفعلي لسعي هؤلاء لتسخيف قوة الكلام و أهميته في الوجود الانساني خصوصا, هو حتى لا يقوى من يدعو الى ما يضاد دعوتهم أن يؤثر في جماهيرهم. و المضحك أن من يريد أن يثبت سخف الكلام و ضعفه انما يفعل ذلك عن طريق "الكلام"!

على أية حال, فان العرفاء انما التزموا الجانب الاعمق في الوجود الانساني و هو جانب القلب, و من القلب التزموا جانب المشاهدة الواقعية للحقائق الوجودية كلها من أعلى سلّم الوجود الى اسفله, و من وسائل التعبير و الدعوة الى دينهم و طريقتهم التزموا كأصل الجانب الأقوى في التغيير و التثوير و هو الكلام في صورته المكتوبة و المسموعة .

و أما جانب "التطبيق العملي" الذي أصبح شعارا يطلقه كل من هب و دب, فانهم مع كل صراخهم و تهريجهم لم يفلحوا في الغالب لأن "التطبيق العملي" متعلق بالبعد الجسماني, و لا يوجد حركة في البعد الجسماني الا بالبعد القلبي و العقلي و الروحاني و النفسي و ليس لهؤلاء حظ حقيقي في هذه الابعاد الوجودية. و ثانيا لأنه أصلا معظم الدين ليس مما يمكن أصلا "تطبيقه" بالجسم و الدرجة الجسمانية. أصلا الانسان- كل انسان من أبي لهب الى محمد – يعيش معظم حياته داخل نفسه و عن طريق نفسه, و ليس عمله الجسماني الا شئ قليل جدا مما يدور في نفسه و باطنه. لعل أكثر من 90% من حياة الانسان هي حياة باطنية, و 10% فقط هي حياة ظاهرية. و اذا تأملنا في تركيبة القرءان الكريم سنجد أيضا أنه مركّب على هذه النسبة تقريبا. فالايات التي تسمى بايات الاحكام, و هي المتعلقة بالحلال و الحرام و افعل و لا تفعل, فانها على حسب القول المشهور منذ القدم نحو 500 اية, (و ان كان يمكن استنباط احكام من الباقي و لكن هذا العد بني على ظاهر النص, فمثلا قوله "لا تقتلوا" حكم ظاهر, و من البديهي انه يختلف عن اية "و الشمس و ضحاها" و على مثل هذا المعيار بني العد) 500 اية احكام جسمانية, و القرءان كله نحو 6200 اية, فباقي ال 5700 اية عن ماذا تتكلم ؟ هي 5700 اية كلها اما ذكر و اما فكر. ذكر مثل اية الكرسي, و فكر مثل ايات وصف السموات و الارض و ما و من فيهن. يعني 500 اية ظاهر, و 5700 اية باطن. يعني نحو 8% ظاهر, و 92% باطن. فتأمل هذه النسبة جيدا تنكشف لك الكثير من الامور. و ما يريد البشر ان يقيموا عليه حياتهم و تعاليهم- و خصوصا فقهاء الفراعنة و دجاجلة عباد الله الصالحين- هو أن يجعلوا 99% للظاهر, و 1% للباطن, و هذا الواحد الباطني انما هو مقدمة من أجل اقناع العوام بالتسعة التسعين ظاهري. و كمثال بسيط انظر في بداية كتاب "الخلافة و الملك" للاستاذ أبو الاعلى المودودي في الباب الاول, حيث يقول " ان نظرية القرءان في السياسة مبنية على تصوره الأساسي للكون". ثم يبدأ بتقرير تصور القرءان للكون كما يفهمه, حيث تكون الحاكمية المطلقة لله تعالى في الوجود كله, و يبني عليها انه الحاكمية المطلقة في السياسة الارضية يجب أن تكون لعباد الله (حسب تعريفه و مذهبه طبعا) و "الشريعة" يجب أن تكون

هي الحاكم الوحيد لكل شئ. مما يعني أن حكم الفقهاء و السياسيين في الارض يجب ان يكون مطلقا كما أن حكم الله في الوجود مطلق, و لا قيمة فعلية للقيد الذين يذكرونه بان الحاكم الاسلامي لا يكون الا حاكم "بالشريعة" لان "الشريعة" هي ما يقول الفقهاء و يستنبطوا كل بحسب مذهبه و منهجه على أنه "الشريعة", و باختلاف طفيف في المنهج الاصولي بين فقيه و فقيه يمكن أن يتغير كل شئ في "الشريعة" فضلا عن لو كان التغير و الاختلاف كبيرا بين منهج هذا و منهج ذاك و كلها أصلا تدخل تحت باب "الاجتهادات" الغير معصومة في شئ (بحسب تعريفهم فانما أتكلم بلسانهم الان). و بالطبع اذا نظرنا الى مدرسة اخرى أيضا تنتسب الى الاسلام و الشريعة , كالفرقة الشيعية الاسماعيلية, فاننا سنجد أنها أيضا تبني طريقتها في السياسية و الدعوة على مثال عقيدتهم في الكون و الوجود, ففي كتاب "راحة العقل" للداعي أحمد حميد الكرماني نجد بالصورة أيضا مقابلة بين هندسة الوجود ان شئت و بين هندسة السياسة و الدعوة, فمثلا في الوجود أعلى شئ هو "العقل الاول" يقابله في السياسة و الدين "الناطق" , و "و العقل الثاني" يقابله "الامام القائم بالفعل و هو الأساس عليه السلام" و هكذا يتسلسل في المقابلة. و بهذا ترى أن الله يصبح وسيلة للسياسة. أو ما يسمونه "الرؤية الدينية للكون" هي مجرد مثال عالي يطبقه هؤلاء في الحياة السياسية. و لم يقم فرعون الا بهذا أصلا، من كان له حظ من التحقيق يعرف هذا. الفراعنة ليسوا الا أناس نظروا الى "العالم العلوي" و جعلوا أنفسهم صورته في "العالم السفلي". و ليس من الغريب أننا سنجد صورة "العالم العلوي" و هندسته تختلف بحسب اختلاف مذهب و طريقة الجماعة التي تريد أن تسيطر على الناس في "العالم السفلي". فمثلا اذا قارنّا بين ما يقوله المودودي و الكرماني, سنجد أن كل منهما يسبح في واد غير صاحبه, و ان كان العامل المشترك بينهما هو تأسيس سلطة مطلقة لشريعة مخصوصة و جماعة مخصوصة. بل حتى السيد حسين نصر قد ذكر في كتابة "العلم و المقدس" مبدأ خطيرا يقول بما معناه (لاني اترجم عن النسخة الانجليزية) " لا يوجد شئ في الوجود له الحق في البقاء خارج اطار مبادئ الدين و تطبيقاته المختلفة ". و مثل هذه الشمولية التي و ان كان لها وجه حق و لكن عندما توضع مثل هذه السلطة في يد جماعة معينة فانها ستؤدي في الاغلب الاعم الى أسوأ أنواع الفرعنة. و هل يوجد أسوأ من أن يوجد فرعون و لكن يعتقد الناس فيه أنه موسى ! و ان كان مثل السيد حسين نصر-بارك الله في عمره- يشدد على أهمية المعرفة بكل مستوياتها و أن لها الاولوية المطلقة, و لكن بمثل هذه الكلمات و المبادئ يقوم الطغاة و الجهلة و يؤسسوا لانفسهم نظما و جماهير تضطهد العلماء الذين أسسوا هذه المبادئ قبل غيرهم ! و بما أننا ذكرنا مثل السيد حسين نصر لنذكر بأنه اضطر للهروب من ايران بعد قيام الثورة الاسلامية الخمينية, و أرباب هذه الثورة اضطهدوا و شردوا من يخالفونهم بنفس حجة "لا يوجد شئ له الحق في الوجود خارج اطار الدين و تطبيقاته" و بالطبع "الدين" دينهم, و من يحدد ماهية الدين "هم" فالنتيجة العملية هي: لا يوجد حق لاحد في البقاء ان كان يخالفنا. و لات حين مناص.

و يغفل هولاء عن ان تقريرهم بان الله تعالى هو الحاكم المطلق للكون ، ينفي امكانيه وجود اي حاكم غيره. و لكن مقتضى تقريراتهم و اسسهم هو ان الله تعالى يحكم الكون كله من العرش الى الفرش، اللهم الا هذه الكره الزرقاء

التي نسميها كوكب الارض، و التي لا تساوي ذره رمل في بحر مملكه الله، نعم، ذره الرمل هذه هي الوحيده التي خرجت عن طاعه الله تعالى و حكمه الشامل المطلق في الكون و الاكوان، و الله عز اسمه يحتاج الى هذه الشرذمه من المهووسين بالتسلط و القمع لكي يقيموا له حكمه و يتمموا لمه ملكه ! ثم يجد هؤلاء الجرأه على ان يزعموا بانهم من اهل الله ، و انهم يحاربون الكفر. ان لم يكن ايمانهم هذا كفرا ، فلا نعرف ما هو الكفر.

فالحاصل, أن المعادلة الحقيقية للوجود الانساني- بغض النظر عن المضمون- هي تقريبا 90% باطن و 10% ظاهر. و على هذه المعادلة جاء دين الحق ليكون 90% منه ذكر و فكر, و 10% منه حلال و حرام. و الحلال و الحرام ينبع من الذكر و الفكر تلقائيا و بدون تكلف و مشقة. مع العلم بأن الطغيان هو أن تفرض على انسان حلال و حرام (اي نظام قانوني و عرفي) لا يعتقد هو بال 90% من العلم و الرؤية التي وراءه. فان أردنا ان نتحدث بمصطلح "عقيدة و شريعة" فان فرض شريعة معينة على غير أهل عقيدتها هو الطغيان و الفرعنة, حتى لو كانت شريعة الاسلام و كان الذي يطبقها هو الرسول نفسه فما بالك لو كان الذين يطبقونها مجرد عصابة من "اللصوص المتغلبة" (كما يسميهم الزمخشري). و العكس أيضا صحيح, فان وجود جماعة لها عقيدتها يعني أنه لها الحق في أن تقيم شريعتها و منعها من ذلك يعتبر من الطغيان و الفرعنة في حقا. و على أصحاب العقيدة المتماثلة أن يهاجروا الى الدول التي يوجد فيها أمثالهم, و هذا هو الحل الأسلم. و لكن بحسب دين الله, فانه لكل انسان الحق في أن يدعو الى فكره حتى في بلد معظمها ليسوا من أهل هذا الفكر, و منعه من ذلك يعتبر ظلم. (ادرس قصة شعيب مثلا لترى ذلك). و لنكتفي بهذا الكلام في هذه المواضيع لانه ليس من صلب البحث و ان كان من فروعه.

يقول الشيخ الأكبر "حجاب العزة دون سبحاته مسدل, و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل ". من الأسباب التي قد تدعو الى ضرب مثل هذا الحجاب على مبدأ دين ما او نظام ما, هو حتى يحرسوا دينهم من أن يخترقه أحد و يبدله بتغيير أصوله و يجتثه من أصوله. و هذا سبب "أمني" ان شئت. فبكون أصل النظام مجهول و غامض و لا يمكن الوصول اليه, فان النتيجة هي أن النظام سيكون دائم الثبات من حيث ثبوت قاعدته. و في كل نظام يوجد قواعد أساسية يقوم عليها. و هو معنى قولي السابق "لكل دولة أصنامها". فالصنم هنا بمعنى الشئ الثابت سواء كان فكرة أو قيمة أو مسلك ما. و الدولة ليس فقط بالمعنى السياسي و ان كان مشمولا أيضا و لكن الدولة بمعنى أي نظام. فان كانت هذه القواعد مكشوفة فان هذا يعرضها الى النسف و الضرب و الهدم. و لهذا يسعى أهل كل نظام عموما الى أن يخفوا قواعدهم و يسبغوا عليها هيبة الغموض و الغرق في المجهولية و العلو.

و مثال بسيط على ذلك: اذا قام الأب بمنع ابنه من الخروج في الليل من المنزل, ثم سأل الابن أبيه "و لماذا لا يجوز الخروج في الليل ؟" فالأب هنا أمام احتمالين, اما ان يبين له السبب الحقيقي الذي استند عليه في حكمه هذا, و اما

ان يمنع ابنه من السؤال أصلا. فان ذكر السبب فانه سيفتح على نفسه باب الجدال و نقض هذا السبب, كأن يقول الاب "لاني أخشى أن يخطفك أحد في الليل" فيقول الابن "و لكني ساخرج مع جماعة من أبناء الجيران و الاقرباء الكبار وفيهم فلان و هو شرطي و فيهم فلان و هو جندي و فيهم فلان و هو مقاتل مشهور فلا خوف اذن من أن أتعرض الى الخطف" او غير ذلك. و حتى يسد الأب باب فساد نظامه و أوامره, فانه قد يقول لابنه " اسمع كلامي و أطع أوامري بدون سؤال, أنا أكبر منك و أعلم مصلحتك و أنت لا تعلم ". فهكذا كلما كان الأصل أغمض كلما كان الفرع أثبت. و انكشاف الاصل هو في كثير من الاحيان مقدمة لاجتثاثه. و هل يدمّر ما يسمى بالاخلاق الحسنة و الشرائع المقدسة الا تسبيبها و تعليلها ! و هنا مفارقة : وجود علة ظاهرة للحكم يعني امكانية تعرضه للنقض, و عدم وجود تعليل مناسب للحكم يعني أنه لن يرضى باتباعه الا البهائم البشرية و من أغلقوا عقولهم بأنفسهم . فالشريعة الغير معللة لا يتبعها العقلاء فعلا , و الشريعة المعللة سينقضها العقلاء حتما , فالظاهر أن العقلاء أعداء الشرائع عموما اللهم الا أن تكون الشريعة بحسب ذوقهم الخاص (و مصالحهم السفلية أيضا أحيانا) فانهم عندها يكونون من أشد أنصارها. و قد يظهرون أن فيها "اعجاز علمي" أيضا ! فتأمل.

و من هذا الباب نجد عموم أرباب الأنظمة الدينية يحيطون أصول دينهم بالغموض و القداسة (هنا بمعنى عدم امكانية العقل "النجس و الضعيف" ان يعرف المقدس المتعالي). طبعا "الأنظمة الدينية" لا تعني فقط الديانات بالمعنى المشهور كالاسلام و المسيحية و الهندوسية, لا بل قد تعني أي مجموعة قيم و افكار و من ضمنها دين الجسمانيات الالحادي كذلك. و لعل من هذا الباب قيل " حجاب العزة دون سبحاته مسدل, و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل " لان الدخول الى الله يعني احضار دين جديد ! و هذا ما يقوم به خواص العرفاء من كل الديانات, فانهم يسافرون الى أصل الوجود و يطرقون أبواب رب العرش المتعالي, و يطلبون منه أن يمدهم بمدد حي من الدين و الذكر و الفكر, ثم ينزلون من عنده و يعرضون ما أوتوه على الناس. و ان كان في كثير من الاحيان ان لم يكن كلها يعمل العارف الذي نال شرف حصول مواجهة مباشرة مع الله تعالى, بعد نزوله يعمل عن طريق الدين و الرموز و اللسان السائد في المجتمع الذي يريد أن يبلغ فيه دينه و ينشره. و يوجد استثناءات قليلة لهذا. و أحيانا يدعو من خلال رؤية سائدة ثم يبدأ بالانفصال شيئا و شيئا عنها, فهو يخرج الناس من "ظلمات" دينهم القديم الى "نور" دينه الجديد, و لكن بالتدريج. كمثل تكون الجنين في بطن أمه ثم انفصاله عنها و استقلاله بعد مدة مناسبة و بعد عدم امكانية الأم الحاضنة أن تتسع لحجم الجنين فتضطر الى اخراجه من بطنها او هو نفسه يضطر الى الخروج من ضيق بطنها.

أصل صنع الأصنام هو الرغبة في الثبات و الاستقرار. و مشكلة صنع الاصنام أنها سعي لوجود ثابت في حقل متغير بحقيقته و طبيعته. و عندما يقرر الشيخ مثلا أنه "لا تكرار في الوجود" و أيضا بحسب نظرية الشيخ في "الخلق الجديد" و هي أن الله يخلق كل شئ لحظة بلحظة فلا يوجد ثبات في عالم الخلق أصلا, و لا يتجلى الله مرتين

بنفس التجلي. فانه مما قد يترتب على ذلك هو نسف رغبة المخلوق في الثبات و الاستقرار. و بالعكس من هذا نجد أن دين الثبات و الاستقرار دائما يبنى على أساس أن الله قد عمل عمله و فرغ و استراح. و بالتالي أي "بدعة" تعتبر شئ من غير الله, لان الله قد عمل كل شئ, و عمله عندنا, فما خالف ما عندنا فليس من عند الله, و بالتالي هو من الهوى والشيطان الرجيم قبحه الله. هذه هي خلاصة منطق مثل هذا الدين. و قاعدته كما ترى هي أن الله قد عمل و اعطى و فرغ. و بالتالي لم يبقى الا الحياة داخل هذا الاطار. فان كان الاصل الحقيقي هو أن الله يعمل و يصنع و يخلق لحظة بلحظة, و فيضه و عطاءه لا يتكرر فضلا عن أن يتوقف او ينفد, فان نظرية الاستقرار الصنمية هذه تذهب جفاء. و من هنا يمكن أن نقرر حقيقة عرفانية تقول : دين الله لا ثبات فيه من حيث الصور, و ان كان ثابتا من حيث الجوهر. و الجوهر هو الحقائق التي لا مجال أصلا لتغيرها بحسب الوجود , و امتناع التغيير ليس أمر شرعي او قانوني بل هو امر وجودي فحتى لو سعى كل الخلق الى تغييرها لما استطاعوا. و هذه هي التي نسميها ب "الحقائق المقدسة" او "سنت الله". و كل ما ينتمي الى هذه الحقائق لن يؤثر فيه أن يؤمن به الناس أو لا يؤمنوا. فهي مبادئ من عرفها انتفع و من جهلها فلا يلومن الا نفسه. و مثلا أحدية الله التي هي أكبر هذه الحقائق لا يمكن تغييرها وجودا و فعلا. و ان كان يمكن أن يتخذ الناس صورا تخالف في ظاهرها هذه الحقيقة الوجودية, الا أن الواقع لا يتغير اللهم الا تغييرا طفيفا بالنسبة لمن يعتقد بمثل هذه الصورة المحرفة للحقيقة, و فرق بين صورة "تمثل" الحقيقة (و هذه النوعية من الصور قد تتعدد فعلا و يكون لها كلها اعتبارها في دلالتها على الحقيقة, و هذا من الاختلاف الصوري فقط , كمن يعبر عن الذات الاحدية باسم "الله" و لكن قد يعبر الاخر عنها باسم "براهما" فالاختلاف هو في ا ل ل ه, ب ر ه م ا, و اما من حيث المدلول الواقعي للكلمتين فواحد) و صورة "تحرف" الحقيقة. و حتى التحريف على المستوى العميق لا يؤثر الا على العميان و الأنعام, و أما أهل النظر الثاقب و التحقيق فانه لا يمكن أن يحرفهم أحد و يخدعهم بشئ.

فحجب الله يعني احتكار الدين. واحتكار الدين يعني فرعنة باسم الحقيقة. و لذلك من أجل ان يظهر الفرعون بثوب "أنا ربكم الأعلى" فانه يضطر الى أن يحجب "الرب الأعلى" نفسه أولا. و من سخف الفراعنة أنهم يؤمنون بوقوع صلة بعض الناس بالله تعالى و يسمونهم انبياء و رسل ثم اذا جاء أحد بعد ذلك يقول أنه قد اتصل بالله قالوا عنه "مجنون زنديق و مدّعي النبوة " ! (و لا نريد أن نفتح باب ما يسمونه "معجزات" الان). المهم أن نلاحظ هذا الأمر, و هو أن ادعاء أن "الله محتجب لا يصل اليه أحد" ليس قولا مبنيا على واقع او حقيقة, و انما قول قائم على رغبة و مصلحة. و طبعا الرغبات و المصالح كثيرا ما تتلبس بثوب و قميص الواقع و الحقائق, بالاضافة الى قيام حرس جمهوري حول "قميص عثمان" هذا من أجل ضمان استمراريته و عدم تعرض احد لهذه الوقائع و الحقائق المدعاة بالنظر و النقد . فمعيار الفرعنة هو هذا : هل يسمحوا للمخالف بالكلام الحر أم لا ؟ ان كان لا, تحت أي ذريعة, فهي فرعنة. و ان كان نعم, تحت أي فلسفة, فلا.

و لنكتفي بهذا في باب الدلالات.

ه) على أي أساس تمت المطابقة بين الاله المطلق الذي "حجاب العزة دون سبحاته مسدل و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل " و بين الاله المقيد بحسب هذه الديانة او تلك ؟ هذا سؤال أساسي و مهم . فاننا نجد أن أتباع كل ديانه يتحدثون أولا عن "الاله المطلق" ثم يتحدثون عن اله ديانتهم و معبودهم الذي له صفات معينة و خصائص ما و أنزل شيئا ما و أرسل أشخاص لهم صفات كذا و كذا و نحو ذلك من تقييدات و تخصيصات و تحديدات, ثم يتحدثون و كأن هذا الاله الثاني هو عين الاله الاول, أي كانهما شئ واحد. كما نجد مثلا عندما يتحدث بعض الفلاسفة و الحكماء عن "الوجود" و أحكام الوجود من قبيل: أصالته و وحدته و خيريته و بساطته و اطلاقيته و نحو ذلك. ثم يتحدثون عن "الله" الذي في القرءان و الروايات و كأن كلاهما كائن واحد. بالرغم من أن اله الفلاسفة شديد التجريد لدرجة أنك تحسب انه شئ ميت, و تنظر الى اله الدين فتجد أنه شديد التشخص حتى أنك لتحسب أنه سيخرج من النص ليتمثل ملكا جبارا أمامك . و لكن هذا الفيلسوف قد يكون مسلما (لنضرب مثلا بالسيد الطباطبائي صاحب الميزان, و انظر الى كتابه بداية الحكمة مثلا) فقد تجد أن الفيلسوف المسلم كلما اشتد يقينه بمعطيات الفلسفة كلما اشتد يقينه بمعطيات الديانة, و كأنهما شئ واحد. بل حتى وصل الامر ببعض الفلاسفة المتدينين لأن يقول "الدين الحقيقي هو الفلسفة الحقيقة". و هنا اتساءل : هل يوجد مبرر كافي لهذا الربط بل لهذا التطابق بين اله الفلسفة و اله الديانة؟

كبداية يبنغي التذكر بان الشيخ الأكبر يفرق بين "الاله المطلق" و "اله المعتقدات". و اله المعتقدات هو اله هذه الديانة و هذه الفرقة او هذا الفرد, و الذي يختلف عن اله تلك الديانة و تلك الفرقة او ذلك الفرد و لو اختلافا ظاهريا. و أما الاله المطلق فهو الوجود المطلق الذي يعتبر الوجود الوحيد المتجلي في كل شئ, و الذي يرى منه أصحاب المعتقدات بحسب استعدادهم و ظروفهم و مصالحهم. فالاله المطلق شديد التجريد بحيث انه لا مجال لوصفه بصفة ايجابية اصلا بل يعرف بالسلب فقط, فهو ليس كذا و ليس كذا, و لكننا لا نستطيع أن نقول أنه كذا و أنه كذا اللهم الا من باب الرمز كمثل قولنا "موجود..واحد..مطلق". لان هذه الكلمات تعبر عند العرفاء على حقيقة شاهدوها و اطلعوا عليها و شعروا بها بالحدس العالي الصافي. فلا ضير عندهم من اطلاقها على الاله المطلق لانها لن تكون بالنسبة لهم كرمز يحرف الحقيقة بل هو من باب الاشارة و التذكير و ان كان قد يكون حجابا و سببا لانحراف بالنسبة لغيرهم ممن لا يفقه لسانهم. و أما اله المعتقدات فان له "صفات و خصائص عمليه و غائيه" لا يمكن اثباتها فلسفيا ان شئت بالطريقة التجريدية المحضة. فأين اثبات "أصالة الوجود" من اثبات "الله سيبعث الاموات و يحاسبهم على الخير و الشر و سيدخلهم الى جنة فيها عسل و خمر و نار فيها سلاسل و أغلال " وأين اثبات "الوجود واحد في ذاته " من اثبات " الله هو الواحد القهار و الملك الجبار الذي له ملك السموات و الارض و له ميراث السموات و الارض و خلق الخلق في ستة أيام (و ليس سبعة أو خمسة !) ثم استوى على العرش و عرشه كان على الماء " ؟ طبعا بالنسبة للفيلسوف المتدين, و ان كان في خاصة نفسه, يعتقد بان الكلمات الدينية رموز أعطيت للعامة تناسب أذواقهم و مشربهم, و اما الفيلسوف الحكيم و العارف المتأله فانه ينظر الى الحقائق المجردة

وراء هذه الالفاظ "الخطابية". فاذا قال الفيلسوف "الرحمن على العرش استوى" و قال العامي "الرحمن على العرش استوى" ثم شرح الفيلسوف للعامي حقيقة ما يفهمه من هذه العبارة, فانه ليس من المستبعد أن يقتل العامي هذا الفيلسوف او يزندقه و يكفره. و الفيلسوف المحقق لا يختلف عنده قول البعض "الرحمن على العرش استوى" من قول البعض "الله ثالث ثلاثة" فانه يستطيع في كلا الحالتين أن يجرّد هذه العبارات عن ثوبها الخطابي و يكشف عن وجه الحقيقة- ان شاء- في كلا العبارتين. و المغفل العامي اذا سمع الفيلسوف "يثبت" صحة عبارة "الله ثالث ثلاثة" بالطريقة التأويلية الفلسفية فانه لن يلتفت الى هذه الفلسفة و لكنه سيكتفي بالقول "هل سمعت فلان الشيخ؟ انه يؤمن كالنصارى بان الله ثالث ثلاثة !" و لن يكون عند الفيلسوف بعدها الا أن يطلق ساقيه للريح للنجاة من القوم المظلمين. و من هنا تعرض بعض العوام للشيخ الأكبر, فان الشيخ يعبد الاله المطلق, و يتفهم تجلياته كلها و يعطي كل ذي حق حقه, و ينطلق في تأسيسه للمعارف و تفصيله للعلوم بناءا أولا على قاعدة "الاله المطلق", و هذا ما لا يحتمله أصلا عباد اله المعتقد المقيد. فان عباد اله المعتقد المقيد دائما يعتقدون بان الههم هو الاله الوحيد و المطلق. و بالتالي اذا اعترف أحد بصحة اله اخر غير الههم فانهم لا ينظرون أصلا الى تفسيره و فلسفته في ذلك, بل "هو زنديق حلال الدم و كفى, و خير الكلام ماقل و دل ". و من النادر جدا أن تجد أحدا يعبد الاله المطلق و مع ذلك يتعبد لاله مقيد في ظل دين معين. و من هؤلاء هو الشيخ الاكبر و من شابهه من خواص العرفاء. فانهم بالرغم من التزامهم بعقيدة دينية معينة و بشريعة معينة, بحكم قيد العقل و الجسم و المجتمع, فانهم مع ذلك لا يخفى عليهم الاله المطلق و مقتضيات هذا الاله تبارك و تقدس. و هذا ما لا يتفهمه غير خواص العرفاء. فان العوام مثلا لا يتفهمون كيف يمكن لشخص أن يعتقد بان شريعة أخرى أيضا صالحة و أن ترك شريعتهم جائز في الحقيقة, و مع ذلك يجدون صاحب هذه العقيدة من أشد الملتزمين بشريعتهم بل أكثر منهم . و مثال ذلك الشيخ الاكبر, فانه ملتزم بالشريعة أكثر و أعمق من أكبر متفيقه من العوام بل من شدة التزامه بحرفية الشريعة كان يرفض القياس و يراعي حرفية الالفاظ و ينظر الى كل الاجتهادات بعين المراعاة و الادب و البحث عن تأويل لصحة كل اجتهاد في الشريعة قدر الامكان, فهو "كان ظاهريا في الشريعة باطنيا في العقيدة" كما وصفه أحد العلماء (و ان كان الشيخ أيضا باطنيا في الشريعة من حيث استنباطه و كشفه عن أسرارها والحقائق التي قامت عليها كما تجده واضحا في تأويله للاركان الخمسة في الفتوحات المكية. فيظهر أن مقصد من أطلق هذه المقولة في حق الشيخ هو أنه كان يراعي ظاهر الشريعة جدا و يغوص في أعماق العقائد ليصل الى جواهرها. و لم يقصد أنه كان غافلا او متغافلاعن الحقائق التي وراء الشريعة). و هل يوجد أشد مراعاة للشريعة من الاهتمام بالالتزام بها حرفيا و منع القياس ! ثم يأتي احد العوام ممن يقولون بالقياس و المقاصد في الشريعة (و التي تعني فيما تعني أن التشريع أصبح في يد الفقيه) و يزايد على الشيخ الأكبر في مراعاة الشريعة و الديانة المحمدية . رموه بداء و فيهم الداء كله. و مراعاة التجليات الالهية تعطي هذا الأدب و هذه السعة, و لذلك نرى أن الشيخ بالرغم من أنه لا يقول بالقياس الا أنه يحترم اجتهاد من دله الدليل على القول بالقياس على اعتبار ان لكل مجتهد نصيب و غير ذلك, و هذه طريقة لا نراها الا عند الشيخ الأكبر و قله ممن تبعه لو اقترب من نهجه، فبقية الفقهاء اما يقولون بالقياس و

يستحقرون كل من سواهم, او لا يقولون بالقياس و يكفرون او يستحقرون كل من سواهم. و بالطبع نشر مثل هذه الروح الواسعة الواعية هو أقدس جهاد في سبيل الله الحق. فهل من مدكر.

فبدون الاله المطلق لا قيمة لاله المعتقدات. لانه ان اعتبرنا الاله المطلق كالشمس فان الهة المعتقدات هم كأشعتها, او هو كالبحر و هم كقطراته و أمواجه, أو هو كالماء و هم كالشجر الذي ينبت من ماء واحد و لكن تختلف الوانه و ثماره. و ان كان ضرب مثال تام للاله المطلق هو من الأعمال الغير ممكنة, لانه لا يوجد مطلق فعلا الا هو, و ليكون المثال تاما ينبغي أن يوجد تمثيل تام, و هذا يعني وجود تعدد في الحقيقة من حيث الممثل و المتمثل و لو على مستويات وجودية متعددة, و حيث ان الاله المطلق واحد أحد فلا مجال لضرب مثال تام له. و انما هي تشبيهات اجتهادية لتقريب الحقيقة لأهل الارض.

فاذن اثبات الاله المطلق لا يعني اثبات اله المعتقد. و لكن اثبات اله المعتقد يتضمن اثبات الاله المطلق. فقد يخترع الانسان الها و يدعو الناس اليه فيعتقدونه, و هذا لا يعطيه الحق في أن يعتبر كتجلي للحقيقة المتعالية. و ان كان له وجه حق, مثل كل شئ في الوجود. و لكن هذا لا يعني أنه صادق فعلا على كل المستويات. فلا شك أن من يعتقد باله سيخلق عالما اخر بعد هذا ليحاسب فيه الناس, ليس كمثل من يعتقد باله يحاسب الناس في هذه الحياة فقط وليس بعد الموت الا العدم. و ان كان كلاهما له وجه حق بالنسبة لمن يعتقد به, و سيكون لاعتقاده به أثر في حياته وعقله و منهجه و قيمه. فاله المعتقد اله فاعل فيمن يعتقد به. و لكن غير فاعل فيمن لا يعتقد به. و اما الاله المطلق الذي يعتبر هو الحقيقة الواقعية في كل مستوياتها, فهو فاعل في الكل و لا مجال أصلا لرد فعله و أمره الكلي و التفصيلي. فالاله المطلق هو الذي شاء و سمح بوجود الهة المعتقدات, و لو لم يشأ ذلك لما كان في امكان أحد أن يراهم او يعتقد بهم فضلا عن أن يكون لهم تأثير فيمن يعتقد بهم. و من هنا يطيع خواص العرفاء هذه المشيئة, فيقبلوا بوجود هؤلاء الالهة من هذه الحيثية. أي حيثية المشيئة الالهية. و انما يوجد الصراع بين الهة المعتقدات. و الكل خاضع في الحقيقة للاله المطلق في نهاية المطاف بل و أوله كذلك. و من هنا قد يصطلح البعض على تسمية اله المعتقد ب "رب" و لكن يسمي الاله المطلق ب "رب الارباب". و من هنا في ديانتنا القرءانية, وجد من يقول بان الاعتقاد باله معتقد مخصوص واحد فقط هو عين الاعتقاد برب الارباب, و هذا وهم خطير و خادع. فان أي اله معتقد لا يمكن أن يتطابق مع الاله المطلق. و من يعتقد فعلا برب الارباب فهذا يعني أنه سيقبل بتجليه في باقي "الارباب" و ان كان سيرفع وعيه وتعلقه الروحاني الى المطلق, و هذا لا يعني رفض الجزئي و المقيد. المطلق و المقيد حق, الا أن المطلق أحق و هو المبدأ و المنتهى و الواقع الكلي. و أما المقيد و الجزئي فيخضع في قبوله لشؤون الناس و ظروفهم و طبائعهم و مستوياتهم و طورهم. فبعض الناس لا يصلحهم مثلا الا اله شديد العنيف, و بعض الناس ينفر من مثل هذا الاله و لا يصلحه الا الاله الرحيم اللطيف و ان شم رائحة عنف و شدة و غلظة فانه

ينفر و يكفر. و "الله الحق" هو معبود الكل و معشوق الكل بالذات, و بالتالي القول بان الاله العنيف هو فقط الحق يعني هدم لكل الحقيقة الوجودية التي تقضي بان الاله المطلق هو معبود الكل و معشوق الكل و لا يمكن أن يكون الواقع الا هذا. و هذه المسألة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمسألة كيفية الخلق, أي كيف خلق الاله المطلق الخلق و لماذا. و لنترك هذه المسألة الى حين عرض اقتباس للشيخ الأكبر فيها ان شاء الله. و مجمل القول, هو أن كون الكل عباد الله يعني أن الكل يقبل الله, الكل يقبل الله يعني أن الله يظهر لكل بحسب نفسه و استعداده, و هذا الظهور يعني تعدد تجليات الله بحسب عدد و استعداد القابل. فتعدد الالهة يعني تعدد طبائع الناس او تعدد القوى الفاعلة حقا في العوالم, و لا يعني تعدد الله في ذاته- حاشا لله. و من يزعم بانه لا يوجد الا قوة فاعلة واحدة فقط في العوالم على كل المستويات, فان هذا يقتضي أنه عندما يطلب من زوجته أن تعد له الطعام ليأكل فانه يعتبر مشرك يدعو من دون الله الها اخر ليرزقه . أو أن يعتقد بان زوجته هي الله نفسه ، و من يدري لعل زوجته فعلا من هذا النوع الجبار. فتأمل.

فالحاصل أنه بدون نظرية العرفاء في تجلي المطلق في المقيد, لا يوجد أي قيمة للمطابقة التي يقوم بها علماء الكلام و الفلسفة في ايجاد مطابقة بين الاله المجرد الذي يعرف بالعقل, و بين الاله المشخص المخصوص الذي يوجد في الديانة و النقل. فمن يرفض نظرية العرفاء , ان كان فيلسوفا فلا حجة لكونه متدينا, و ان كان متدين محض فلا حجة له على صدق الهه بحال من الاحوال حتى لو جاء رسوله و امامه بألف "معجزة" و فلق القمر و البحر و المجرة أيضا, و شهد كل الناس منه ذلك فعلا (و ليس حكايا في كتب) فانه مع ذلك لا حجة. اذ كون "المعجزة" ليست من البشر, لا يعني أنها من "الله" . فلعلها من غيره من القوى الفاعلة في العوالم. كمثل نملة تريد أن تخضع بقية النمل لسلطانها, فتذهب الى بقية النمل و تقول لهم "اطيعوني فاني مبعوثة من القوة المطلقة في الوجود و هي قوة واحدة فقط" ثم يطالبها النمل ببرهان ان كانت من الصادقين, فتقول النملة " برهان صدقي أني أستطيع أن أحرق هذه القرية كلها باشاره واحده من اصبعي " فتتصل النملة بطفل صغير مشاكس عنده عدسة مكبرة فيحرق الطفل هذه القرية فعلا عند طلب النملة. فهل هذا دليل على أن "الله" هو الذي حرق القرية ! و فقط لان النملة لا تسطيع أن تحرق القرية باشاره من اصبعها فان هذا لا يعني أن "الله" تعالى هو الذي حرقها ! و أن هذه "معجزة" ! ما لكم كيف تحكمون. و الكرة الارضية هذه التي نعيش عليها باجسامنا تعتبر أصغر من قرية النمل هذه بالنسبة للمجموعة الشمسية هذه فقط, فما بالك نسبتها الى المجرة, فما بالك نسبتها الى بقية المليار مليار مجرة, فما بالك و أن كل هذه المجرات و ما بعدها تعتبر كلها من العالم الجسماني الذي لا يساوي حلقة في فلاة بالنسبة للسماء الاولى, و السماء الاولى لا تعتبر الا حلقة في فلاة بالنسبة للسماء الثانية, و هكذا حتى تصعد الى العرش ثم العرش و ما فيه لا يعتبر الا قطرة ماء بالنسبة الى الله تعالى, و في كل هذه الابعاد الوجودية يوجد كائنات فاعلة من شتى الانواع التي نعرفها و التي لا نعرفها, أتريد أن تقنعنا أيها الصبي المتدين أنه لو وجد شخص في

منطقة من مناطق هذه الارض و استطاع فعلا (أتكلم الان لو رأيناه فعلا بأم أعيننا و بكامل صحتنا و قوانا, و ليس في حكاوي يوجد من أتابع الملة أنفسهم من يضعفونها بل و يكذبونها) لو استطاع أن ليس فقط ان يفلق القمر باشارة اصبعه بل لو انزل الشمس نفسها و جعلها تستقر على راحة يده ثم يامرها فتصعد مرة أخرى الى محلها, فهل تريد أن تقنع نفسك و تقنعني بأن هذا يعتبر "حجة" على أن هذا الشخص مبعوث من الله رب الوجود كله المطلق المتعالي الفرد الصمد الذي هو الاول و الاخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شئ عليم ! نعم يمكن أن تضحك على نفسك بذلك, و يمكن أن تراعيه او تجد في نفسك قبولا له من حيث أنه يناسب مصالحك , و لكن أرجوك أن لا تهين كرامتك الانسانية بالدرجة التي تجعلك تعتقد بأن هذه "حجة قاطعة" فعليا على صحة هذه العقيدة الجزئية. فالمهم, الفيلسوف الغير عارف كافر, و المتدين الغير عارف سفيه, و لا يثبت في المقام الا العرفاء. و كشفهم و نظرياتهم هي المخرج الوحيد لمثل هذه المعضلات, بل وهي القاعدة التي تقوم عليها الفلسفات و الديانات. فالعارف أعلى من الفيلسوف و المتدين. لان كلاهما يفتقر اليه و هو لا يفتقر الى أحد. فسبحان من رفع أولياءه و أكرم عباده.

و بهذا نختم تنزلات كلمة و سحابة الشيخ الأكبر- سلام الله عليه " حجاب العزة دون سبحاته مسدل, و باب الوقوف على معرفة ذاته مقفل ". و الحمد لله رب العالمين.

2 (هذا هو المقام المحمدي الأطهر , من رقى فيه فقد ورثه, و أرسله الحق حافظا لحرمة الشريعة و بعثه)

ان الجاهل يكتب كتابا طويلا بالرغم من انه يمكن تلخيصه في سطر واحد, و أما العالم فيكتب سطرا واحدا يحتاج تفصيله الى كتاب طويل. و ذلك لأن الجاهل ينتمي الى الدركة السفلى و التي هي المفاخرة بالكثرة, و ليس بالجوهر و القيمة, و لذلك ترى أحدهم لا يعتبر أنه "كتب كتابا" الا لو كان مكوّنا من مئات الصفحات عموما .(و هذا من أسرار ما يسمونه "كتابة" في هذا العصر المظلم, و هو أن تكون في ذهن الكاتب ثلاثة أو أربعة أفكار رئيسية ثم يلف و يدور و يقفز و يهبط حتى يمطّ هذه الأفكار الأربعة لتصبح كتابا مكونا من 300 صفحة, و عندها ينشره و يصبح "كاتبا بارعا" ما شاء الله. و أقول "يسمونه كتابة" لأن الكتابة في أصلها الديني تعتبر عملا مقدسا, له صلة بالمقدس و المتعالي, بل ان من يدرس الاية القرءانية المباركة " أم عندهم الغيب فهم يكتبون " و يتعمق فيها فانه سيعرف شئ عن حقيقة الكتابة و المقام العالي لها, و لذلك لن ترى كاتبا له وزن فعلي الا و ستراه ممن لا يستطيع أن يكتب في كل وقت, بل انه ينتظر حتى "تفرض" عليه الكتابة فرضا, و من لا حظ له من الصلة الواعية بالغيب خصوصا من الكتّاب المعاصرين- و عندما أقول "معاصر" أقصد السفلي المظلم و ليس كل من يحيا اليوم بالطبع- فان هؤلاء يعبّرون عن حالتهم هذه بالقول "كأن الوحي ينزل عليّ" أو "كأن كائنا اخر يفرض عليّ الكتابة" و نحو ذلك. طبعا الفرق بين الكاتب المعاصر و الكاتب الروحاني التقليدي, أن الروحاني يحذف كلمة "كأن" عندما يعبّر عن الحالة القلبية التي يكون عليها حينما يكتب) و أما الكتّاب العرفاء- و أبرز مثال عليهم هو الشيخ الاكبر قدس سره الشريف, فانهم لا يبالون بكتابة سطر واحد فعلا, و اعتبار هذا السطر هو كل ما يحتاج أن يكتبه أو يقوله ليعبّر عما يريد أن يعبّر عنه. فسرد الكلام عندهم مقدّر "و ما ننزله الا بقدر معلوم". و لذلك نجد أن من أعظم الكتب الموجودة هي كتب مختصرة نسبيا, خصوصا اذا قارنّا محتواها بغيرها من كتب من يفاخرون بكثرة كتاباتهم و صورتها. طبعا, اذا رأينا أحدا يجمع بين الدقة و العمق في الكتابة و طول الكتابة في كتاب واحد فان هذا يعتبر قدس الاقداس بالنسبة لعالم الكتّاب و القراء.

و هذه الكلمة التي نحن بصدد النظر فيها هي مما يدخل تحت هذا البند من الكلمات الدقيقة العميقة الحاوية لعشرات المسائل و التي لا نستطيع أن نوفّيها كلها حقها و لذلك سنتخيّر بضعة مسائل فقط و نشير اشارات فيها شئ من التفصيل في محله المناسب ان شاء الله. مع العلم أن الكلمة الجامعة تستطيع أن تنظر اليها و تستفيد منها بحسب الوعاء الذي تنزلها فيه, فليس لها "تفسير" واحد, و لكنها تعتبر دليلا و شاهدا و نافعا بحسب المسألة التي ترغب في النظر فيها من خلالها, فهي كالماء يتلون بحسب لون الاناء. (و مصيبة بعض الذين يدعون انهم "يفسرون" القرءان- و العياذ بالله- هي أنهم أغفلوا هذه الحقيقة الكبرى للقرءان بل و كل كلام ينزل من الله و أصله من الخزائن المقدسة "أنزل من السماء ماءا فسالت أودية بقدرها" و ليس "بقدره" فتأمل).

و من أهم المسائل التي لها صلة مباشرة بالوضع الحالي لأمة محمد عليه السلام مسألتين: الشريعة و النبوة. فلننظر الى هذه الكلمة الأكبرية و نرى ماذا يمكن أن تفيدنا في هذا المجال.

أ) الشريعة . من من المسلمين له سلطة القيام بالشريعة و تفسيرها و تحديد الحكم فيها ؟

هذا هو أهم سؤال ظل يطرق عقول أهل الاسلام خصوصا و البشر اليوم عموما. فان أردنا أن نشخص المسألة بمصطلح متعارف عليه في العرف الاسلامي نقول أنها مسألة "الامامة". على اعتبار الامامة بحسب الظاهر, أي بحسب سلطتها الظاهرية الاجتماعية- السياسية, الفقهية و التعليمية, اصدار الفتوى . ففي يومنا هذا مثلا, و هو العصر الذي يتميز بغياب دولة اسلامية بكل معنى الكلمة, أي لا يوجد "خلافة اسلامية" و سنأتي ان شاء الله على شئ من تفصيل في هذا الموضوع و لكن لاحقا. أكبر صدمة وقعت على رؤوس المسلمين (المنتمون لما يسمى بأهل السنة و الجماعة خصوصا) هو زوال الخلافة العثمانية في بداية القرن العشرين. حتى أنه بعد زوال الخلافة اجتمع بعض كبار علماء الأمة السنيه ليعينوا خليفة جديد للمسلمين, و لما لم يستطيعوا أن يجتمعوا على رأي قام الشيخ الظواهري (و هو جدّ المسمى بالارهابي أيمن الظواهري) و قال "لنصلي صلاة الجنازة على أمة محمد " (و قد سمعت هذه الحادثة من الشيخ حمزة يوسف في احدى محاضراته). و لهذه الحادثة دلالات مهمة, و خصوصا فيما يتعلق بقيمة وجود مؤسسة سياسية-اجتماعية تقوم بشأن الاسلام- و لو ظاهريا و شكليا. و هي المؤسسة الملقبة بالخلافة. و بعد زوال الخلافة العثمانية وقعت الواقعة فعلا. و من ينظر في مجمل الفكر الاسلامي و الروح الاسلامية قبل هذه الواقعة و بعدها سيجد اختلافا في الشكل و المضمون, و سيجد شعورا غريبا و عميقا بالانهزام و الضعف و الخوف و التحلل و السعي قدر الامكان من فئة الى جعل الدين كله أشبه ما يكون بمجرد بضعة طقوس من صلاة و صوم و حج و أعياد لا غير, و فئة أخرى تولدت فيها ردة فعل عنيفة ملأت قلوبها و أرواحها بالغضب و السخط و يريدوا ان يقيموا خلافة اسلامية من جديد, و فئة أنكرت أصلا أن الخلافة العثمانية و ما سبقها كانوا أصلا ممن يصح تسمية دولتهم ب "خلافة اسلامية" و من هؤلاء يوجد من ينكر قيام أي خلافة اسلامية منذ وفاة النبي عليه السلام و غصب الخلافة من الامام علي عليه السلام, و منهم من ينكر قيام أي خلافة اسلامية بعد عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم, و منهم من يرى أن هذه الخلافات كانت اسلامية و انما انتهت الخلافة في بداية القرن العشرين مع زوال الدولة العثمانية, و الرأي السائد اليوم بين أهل الفكر خصوصا يظهر أنه يميل الى اعتبار أن الخلافة الاسلامية الحقيقية قد انتهت مع الذين يسمون بالخلفاء الراشدين, و لا نريد أن نستقصي أسباب كل رأي من هذه الاراء فليس هذا محله و ليس لهذا فائدة تذكر في هذا المجال, اللهم الا التأكيد على مسألة واحدة و هي محاولة البعض ان يتحلل من عبء السعي الى بناء خلافة اسلامية جديدة اليوم عن طريق انكار وقوعها أصلا في السابق سواء كان هذا السابق قريبا- العثمانية- أم بعيدا- كالاموية و العباسية و نحو ذلك.

و أما أهمية الخلافة بالنسبة للمسلمين هؤلاء فكانت راجعة الى أمور كثيرة أهمها من الناحية الشرعية الفقهية هو التالي: الخلافة الاسلامية ستفرض-بالعنف- كل أحكام الشريعة الاسلامية. و هذه هي خلاصة الاهتمام العظيم بدولة الخلافة. و باقي الأمور تتفرع عن هذا الاصل. أي أصل فرض "كل" أحكام الشريعة, و كل أبعاد الشريعة, و كل فنون الشريعة, و كل روح الشريعة. و هذا يعني أن تكون الحياة من أولها الى اخرها خاضعة للمبدأ القائل " لله في كل شئ حكم شرعي". و هذا يعني صلة الحياة كلها بالله تعالى و المقدس و المتعالي, و ليس كلمة "حكم" بالمعنى السفلي القانوني فقط, بل تعني صلة المجتمع كله قلبا و قالبا بالله تعالى و أوامره, حتى تكون روحه سارية في الدولة ككل. و خصوصا البعد الظاهري الفقهي, و هو الذي يهم الجماهير و العوام و فقهاءهم. فدولة الخلافة تعني دولة الشريعة. و الخليفة هو المسؤول الأول عن فرض الشريعة. و طبعا لم يغب عن ذهن الكثير من الفقهاء و جماهيريهم- و لو في السر- خيال التوسع و الفتوحات و الغزوات و البطولات الحربية. فلطالما دغدغت و داعبت مشاعر الجماهير (بحسب نظرية الجماهير حمير, أي لا يهتمون الا بالظاهر و المظاهر و الارضي و المادي) بطولات فلان و فلان و غزوات علان, و سبي النساء و نحو ذلك من أمور..طبعا و "اعلاء كلمة الله" في الطريق الى كل ذلك و لا شك ! فان أردنا الحقيقة لقلنا بكل انصاف عن الذين يسعون الى اعادة الخلافة الاسلامية: ظاهر طلبهم فرض الشريعة و باطن طلبهم الغزو و الغنيمة. و ان أردنا أن نبعد التحليل النفسي – و الواقعي في الحق- و نحكم فقط بحسب ظاهر المطلب, فاننا نقول أن : دولة الخلافة تساوي فرض الشريعة, و هذا يعني أن زوال دولة الخلافة يعني زوال فرض الشريعة, و بما أن الدين في الارض- عند الفقهاء خصوصا- يساوي في تسعة أعشاره ظاهر الشريعة, فان النتيجة تكون هكذا في ذهن الفقيه : لا خلافة لا شريعة, لا شريعة لا ديانة اسلامية. و لذلك أراد الشيخ الظواهري أن يصلي "صلاة الجنازة" على أمة محمد عندما استيأس من قيام خلافة اسلامية من جديد.

و فعلا اذا نظرنا الى النتاج الفقهي- و "المقاصدي" خصوصا- سنجد أن وضع الدين الاسلامي أصبح هكذا: من حيث العمل الاجتماعي فان بعض الدول فقط اخذت بشئ من أحكام الشريعة خصوصا في أبواب الاحوال الشخصية كزواج و ميراث و نحو ذلك, و بناء مساجد و شئ من جلد و قصاص كعقوبات "اسلامية" يرفع شعارها من كأنه يريد أن يثبت للناس أن الشريعة الربانية لا زالت تطبق على الارض, و كأن تدحرج رأس انسان على الارض بعد أن نقطعه هو الدليل و لله الحمد أن الشريعة مطبّقة و الدين بخير! و الصلاة أصبحت في أكثر دولة "اسلامية" هي من الأمور التي "نحث" الناس على الالتزام بها و القيام بها و نهونها في نظرهم حتى نقنعهم في القيام بها و نقول لهم "انها مجرد بضعة دقائق كل يوم فقوموا بها " ثم نخترع لهم ما يسمونه اعجازا علميا و اعجازا طبيا و اعجازا لا أدري ماذا أيضا حتى نظهر لهم أن "الصلاة عقلانية تتوافق مع العلم" و أنك اذا سجدت على الارض على أطرافك السبعة باتجاه القبلة ستكتسب "طاقة ايجابية و تفرّغ طاقة سلبية" و هراء من هذا القبيل, و مع ذلك فانه خصوصا الجيل القادم من الشباب أصبح أكثره في هذه البلاد- و هي بلادي و لذلك أتحدث عنها هنا و هي البلاد التي يفترض أنها "رمز الاسلام" فحدث و لا حرج عن الحال في غيرها و ان كان غيرها له شان اخر قد نأتي على الاشارة اليه- أصبح الكثير منه لا يصلي أصلا بالرغم من اعتقاده بالصلاة و ليس لان له فلسفة معينة او مذهب اخر في

نوعية الصلاة و نحو ذلك بل يؤمن بها و لا يقوم بها و هو انفصام حاد يعبّر عن نفسية الجمهور المسلم المعاصر في كثير من الاحيان. و هذا في الصلاة التي هي عمود الدين و الفرق بين المسلم و الكافر ! فما ظنك بباقي "الشريعة" ! طبعا لا نحتاج أن نشير الى "روح الشريعة" و ما هو حالها في هذا العصر, و يكفي أن الفكر المقاصدي المعاصر (و الذي أطلق شرارته الشيخ الطاهر ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الاسلامية و تتابعت الدراسات بعده, و كالعادة بدأ التنقيب عن الشرعية التاريخية للفكر المقاصدي فبعث الباحثون الشاطبي من مقبرة التاريخ و جعلوا كتابه الموافقات من أشهر الكتب الفقهية في هذا العصر لاسباب خاصة طبعا) هذاالفكر المقاصدي يرى أن "روح الشريعة " هي "المصلحة" . ثم بدأ التنظير من هذا المنطلق, حتى أصبحت "الشريعة" بعد النظر اليها بعين الفكر المقاصدي أشبه ما تكون باحكام جاء بها رجل قانون ملحد يسكن في نيويورك أمريكا .و أصبح من الطبيعي جدا أن يقال "يجوز التوقف عن العمل بالنص الالهي و النبوي اذا خالف المصلحة " بل أصبحت هذه المقولة مدعومة بالقرءان و السنة و عمل الصحابة . و حسب اطلاعي المتواضع أنه يوجد في الفكر الشيعي أيضا من يسعى الى شئ من هذا القبيل. بل وصل الأمر بالبعض- كالمرحوم ابن عاشورخصوصا- أن يجعل المقاصد أعلى من اصول الفقه و الفقه, و حاكمة عليهم, بل و مستقلة, و هذا يعني أنه يمكن استخراج أحكام "شرعية" فقط بالنظر الى هذه "المقاصد" بل و يمكن الغاء العمل أو "توقيف" العمل كما يحب أن يسميه "المحامون الفقهاء" من المعاصرين (و أقول "محامون" لان فكرهم و أسلوبهم أصبح خلوا من أي روح و كأنهم محامي يريد أن يدافع عن قضية مهما كلّف الأمر, و القضية هنا هي طبعا قضية كل فقيه و ما يراه مناسبا للأمة المحمدية). طبعا وجد من الفقهاء المقاصديين المعاصرين من سعى الى جعل المقاصد في أسفل السلم, أي تحت الفقه و الاصول لانه علم خطورة هذا العلو و الاستقلال اذا اعطي للمقاصد, و لكن الظاهر أن الغالب هو أن كل من عرف بضعة مقاصد للشريعة – عرف او تكهن و تخرص هذا موضوع اخر لسنا بصدده- أصبح يصول و يجول بهذه الحفنة من المقاصد و يلغي بها ما يشاء من الشريعة و يثبت بها ما يشاء من أحكام, بل اني أصبحت أرى من ينقض عقائد و يثبت عقائد بناء على مقاصد ! كمقصد "وحدة الامة" الذي أصبحنا نسمع باسمه شتى أنواع السخافات من الدعاوى العاطفية الفارغة. و هكذا أصبحت المقاصد سلاح جديد يتبارز به كل من هب و دب ممن ينتمي للأمة الاسلامية. و أصبح الاعتماد الحرفي على النصوص الالهية و النبوية ضرب من الحمق و التفاهة في كثير من الاحيان. و مما أعطى هذا المجال للفكر المقاصدي لأن يبرز و يتوسع هو غياب دولة الخلافة و تساقطها. و بالتالي صار الحديث عن الشريعة الاسلامية نوعا من الترف و العمل بها خاضع للاختيار المحض فكل فرد و ما يشاء, هذا في بعض ابواب الشريعة التي يمكن أن يطبقها الفرد في نفسه و من حوله من الأسرة مثلا, و أما الابواب الاخرى كالجهاد و الحدود و نحو ذلك مما يحتاج الى دولة لفرضه و تفعيله فانه أصبح في الغالب مجرد وسيلة لمعرفة مستوى "تحضر و تمدن" الشخص أيا كان في العالم بالنسبة للفكر الغربي, أو مستوى "التدين و الالتزام" بالنسبة للفكر المسمى بالمتشدد و التقليدي و السلفي. فمن ءامن بحد الرجم يعتبر ساقطا في أعين الغرب و من شايعهم, و من نفى حد الرجم كان كافرا مداهنا في أعين الكثير من المسلمين حتى لو كان هؤلاء "المسلمين" ليسوا ممن يعرف عن الاسلام أكثر من حرف أو حرفين. و

هكذا تحولت مسائل الشريعة الى مجال للتأكد من هوية الشخص و انتمائاته الحزبيه. و قيمتها أصبحت شبه منحصرة في هذا المجال. بل انه أصبح نداء "تطبيق الشريعة" شئ شبه ممقوت في عقلية الكثير من الجماهير, و ان وافقوا عليه ظاهريا أحيانا فانما يكون الدافع عاطفيا و بسبب الرغبة في الشعور بالتميز عن العاصفة الغربية التي جرفت هويتهم و أشعرتهم بأنهم لاشئ في هذا العصر. و نداء "تطبيق الشريعة" أصبح حبلا للتمسك بالهوية. و أما الحقيقة و الروحانية و الصلة بالغيب و نحو ذلك فليس من المستغرب أن يضحك الجماهير على لحية من يقول بها. فيا للجماهير و الشريعة ! بالأمس أرادوها للغنيمة و اليوم يريدوها للهوية. و أما من يرغب في الشريعة للحقيقة فأقل من الشعر الأبيض على ظهر الثور الاسود. و هنا نتساءل: لماذا ؟

اعترف بعض أهل الفكر الاسلامي اليوم أنه يوجد ما يسمونه " أزمة سلطة ". أي من يحق له تحديد ما الحكم الشرعي في المساءل ؟ و ذلك لأن من يقول أن "الشريعة تحكم بكذا" فان معنى كلامه هو "الله يحكم بكذا". هذا ما يفهمه عوام المسلمين من فتوى المفتي أو حكم القاضي الشرعي, فهؤلاء "موقّعين عن رب العالمين" كما يلقبهم العلاّمة ابن قيم الجوزية في كتابه الشهير. و بالنسبة لغير أهل الاسلام, فان نظرتهم تختلف من ناحتين: اولا عندما يجدون تضارب في الاراء الشرعية خصوصا عندما تكون من النقيض الى النقيض و كلها تنسب نفسها الى "الله و الرسول و الاسلام" فان هذا يعزز اعتقادهم بأن هذا الدين هو مجرد صنعة بشرية يقوم عليها زعماء لهم مصالح متضاربة و كل منهم يحكم بهواه و يلبسه ثوب الشرعية. و ثانيا عندما ينظرون في الفقه الاسلامي فانهم يعتبرونه في أحسن الاحوال تعبيرا عن "اله الاسلام" الذي يفترض أنه أنزل هذه الاحكام. و بسبب مثل هذه المشاكل, و التي ازدادت حدّتها بسبب وجود القنوات و وسائل النشر بشتى الصور بأسهل ما يكون و عدم وجود سلطة تضبط مثل هذه الاراء و الفتاوى, فقد وجدت ردة فعل قوية تحاول الحد منها. و الذي يجمع بين كل هذه الاراء التي جاءت كرد فعل لهذه الظاهرة هو أنها "اراء اجتهادية" أيضا. و لا توجد قوة الزامية لأي رأي منها اللهم الا أن يكون اختيارا ذوقيا شهوانيا أو عقليا أحيانا و نادرا من قبل القارئ او السامع. و أقول أنه اختيار شهوانيا في الغالب ليس بسبب سوء ظن بالمسلمين أو الناس عموما- و العياذ بالله- و لكن لأن كل الاراء المعروضة في المحصلة انما هي "اراء اجتهادية في الشريعة الاسلامية" و بما أنها كلها "اسلامية" فاذن هي متساوية من ناحية الحجية الالزامية, فماذا يبقى للتمييز بين الرأي و الاخر غير ذوق المستقبل ؟ هذا كمثل الدخول الى صالة طعام, و على المائدة يوجد سبعين لون من الطعام, فاذا لم يفرض عليك رب المائدة لون أو لونين بل قال لك "كل من حيث شئت فانه كله لذيذ و نافع " فان معيار التمييز سيكون معيار شخصي و ذوقي بحت, فما تحبه انت غير ما يحبه جارك, و ما يكفيك أنت غير ما يكفي جارك, و التسلسل الذي تأكل به أنت غير جارك, و هكذا. و هذا هو بالضبط حال الشريعة اليوم, فان كل الاراء المعروضة انما هي "اجتهادات" بل كلما ازداد تواضع المفكر أو المفتي زاد تشديده على أن قوله مجرد "رأي و اجتهاد". بل وصل الأمر بالبعض أن يقوم بفصل تام بين "حكم الله" و "اجتهاد البشر في فهم حكم الله". و كالعادة يتم الاستناد الى اقوال من هنا و هناك للاستناد على ما أسميه "الشرعية التاريخية" و هي أن كل

فكرة تنتسب الى دين الله يجب أن يوجد لها "سلف" أيا كان. و الحق أن "سلف" أمتنا منذ وفاة النبي الى يومنا هذا قد قالوا كل شئ بدون استثناء , فلو شاء أحد أن يأتي بأي فكرة و يجعلها "اسلامية" لاستطاع أن يقوم بذلك, بل كلما ازداد علمه كلما سهل عليه جعل ما يشاء حلالا و ما يشاء حراما و ما يشاء بين ذلك. و لهذا فان الفقيه ليس من يعرف ما هو الحلال و الحرام و لكن الذي يستطيع أن يجعل أي شئ حلال و أي شئ حرام. هذا هو الفقيه حق الفقه ! و بدأ التاسيس بقوة لفكرة أن الفقهاء القدماء كانوا متأثرين بظروف عصرهم في أحكامهم و فتاواهم, و أنه كان على الفقهاء عموما حجب كثيرة مثل حجاب البيئة و حجاب الاستبداد و حجاب المصلحة و هكذا, ثم بدأ ابراز المقولات التي تظهر الفقيه من السلف و كأنه كان شخص متشكك من صحة استنباطه لحكم الله, فأصبح في النتيجة من يقول أن "هذا هو عين حكم الله" في هذا العصر يصبح على وشك أن يسمى "متطرف" بل أجزم أنه سيسمى متطرف متشدد عاجلا ام اجلا.

العقلية اللادرية أصبحت هي العقلية الحاكمة على عقول أهل الفكر في الأمة. طبعا قد يكون لا أدريا عندما يكتب و يلقي خطبة أو محاضرة "علمية" , فيشدد على أن "هذا مجرد اجتهاد" و "أنا تلميذ متواضع للشريعة و الفكر الاسلامي" و نحو ذلك من عبارات أصبح من الضروري أن يلقيها الانسان قبل أن يكتب و يتحدث حتى لا يتهم- و العياذ بالله – أنه "مستيقن" من كلامه ! استغفر الله, يقين ! كيف تكون موقنا ! لا , لا , هذه كلها اجتهادات في دين الله, قد تصيب و قد تخطئ, و لا حول و لا قوة الا بالله. و لكن هذا اللاأدري اذا جلست بينك و بينه في جلسة خاصة قد تجده من أشد "المستيقنين" بل انك ستسمعه يسفّه و يخرج من الملة و يزندق و يستسخف كما يحلو له و كأن جبريل نزل عليه قبل قليل بالدين الحق كله, فأصبح ممن يحكمون بما يريهم الله. و لكن اذا خرج للجماهير أصبح التلميذ المتواضع الذي لا يحب أن يكون "حدّيا" في التفريق بين الصواب و الخطأ, أو الاراء الصحيحة- بالجمع- و الاراء الخاطئة, و لكن الكل في ضمن الشريعة و "اختلاف أمتي رحمة" حتى لو كان الاختلاف من النقيض الى النقيض على كل المستويات بل حتى لو كان صاحب الراي يفتي بقتل صاحب الراي الاخر ! نعم الكل "اجتهادات" و الرحمة واسعة على كل حال . طبعا نلاحظ أن الاجتهاد مسموح الا أن يكون اجتهاد من يسمون بالجماعات الارهابية و الانتحارية ؟! لا هؤلاء اجتهادهم ليس رحمة و لا صوابا و لا حق لهم في شئ, بل هم جهلة حدثاء الأسنان سفهاء الاحلام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية, و أما من عداهم فنعم باب الاجتهاد مفتوح و الرحمة واسعة. (طبعا هذا ليس تأييد مني لهذه الجماعات و لكني أصف الواقع لا غير) و هنا نرى أن العقلية اللاأدرية لها حد, و لا أكون مبالغا اذا قلت أنه ينطبق على كل مفكر مسلم اليوم. و أما محل هذا الحد, أي أين يجوز أن نقول "هذا هو حكم الله و رسوله" و نجزم بذلك جزما قاطعا, و أين لا يجوز أن نقول ذلك بل نقول "رأيي صواب يحتمل الخطأ و رأي غيري خطأ يحتمل الصواب" أو نقول عن فكرنا "لعله الباطل كله" نعم, هذا الحد لا يمكن وضعه في الواقع الا ب "اجتهاد" أيضا ! فهذا الحد انما يوضع بالتحكم , محض التحكم من قبل البعض. و هذه من أكبر المشاكل التي يتغاضى عنها أهل الفكر الاسلامي عموما. و انما يضعون الحد لسبب واحد في الحقيقة و ان كانوا يلبسونه أثوابا متعددة, و هذا السبب هو "الضرورة" لأنه بدون هذا الحد يصبح كل شئ تحت

حكم الشك و اللاأدرية و الاجتهاد, فلا العقائد و ما يسمى بالثوابت و لا شئ يبقى له حكم الجزم و القطع. لانه حتى اذا جاء نص في موضوع, فان كونه "صريحا" او "محتملا" هو دائما مورد خلاف, حتى في اسم الله "الواحد" . هل هي وحدة عددية أم لا ؟ و الفرق بين النظريتين هو كالفرق بين التوحيد و الشرك على التحقيق, فليست المسألة هينة . فما ظنك بما دون ذلك من مسائل و نصوص "واضحة و صريحة". فلا يوجد سبب يبرر وجود لاأدرية او شك في نص الا و يبرر وجودها في كل النصوص. هذا اذا أردنا أن ننظر بعمق و صدق و علم. بغض النظر عن منطق المصلحة الذي أصبح هو الدين السائد على ما يبدو. بل حتى اذا ادخلنا ما يسمونه بالمصلحة, فان تشخيص المصلحة أيضا مسألة "اجتهادية", بل ان كون الشريعة معللة أو غير معللة, وضعت لمصالح العباد أم لا, و ان وضعت لمصالح العباد هل هي مصالح دنيوية أم اخروية أم كلاهما, و ان كانت معللة فكيف تعرف العلة هل بالنص فقط أم بالكشف أم بالوحي و التأييد الالهي أم بالاستنباط بحسب العقل النظري و المناسبة المنطقية, و و و غير ذلك من مسائل الاختلاف الوارده في كل واحدة منها, و كل رأي فيها انما هو رأي "اجتهادي" بحسب منطق الفقهاء لأنه ان لم يكن اجتهادي فهو وحي معصوم, و بما أن النبوة انتهت و الولي لا يأتيه وحي تشريع و ان كان يأتيه الوحي في غير ذلك من العلوم (كما هو ظاهر نظرية الشيخ الأكبر في شق أساسي منها و سنأتي على ذلك ان شاء الله). بل ان الاختلاف في بعضها ينسف فكرة المصلحة بالمعنى الوارد في الفكر المقاصدي نسفا, كمثل انكار الظاهرية و الجعفرية للقياس, و انكار الظاهرية لتعدية العلة المنصوصة لغير الموضع الذي وردت فيه في النص, و من يقرأ ما كتبه ابن حزم بكل جزم و قطع عن الذين يقولون بالقياس و تعدية العلة (و هم أغلب الفقهاء القدماء و المعاصرين !) لرأى انه ان لم يعتبرهم كفّار فان قربهم للكفر كقرب سواد العين من بياضها. و كل هذه اجتهادات لها وزنها, و اختلاف أمتي رحمة, و الى ما هنالك.

فاذن, عقلية فقهاء العصر و جماهيرهم عموما يمكن أن نصورها بهذه الصورة:

1 لا أدرية طاغية في العلن, شبه مختفيه في السر.

2 الحد بين ما يجوز الاجتهاد فيه و ما لا يجوز قائم على منطق الضرورة و ليس العلم و التحقيق أي هو تحكم محض و بالتالي كل اجتهاد من حيث الاصل له حقه في الوجود كرأي اسلامي (أما قبول هذا الاجتهاد و رفضه فقائم على منطق المصلحة و الذوق كأصل).

3 السعي قدر الامكان الى تسخيف و تسطيح الشريعة و الدين عموما حتى "يقتنع" عوام الناس بها و بالعمل بها.

4 البعض يسعى لقيام دولة اسلامية (بحسب "اجتهاده" في تعريف هذه الدولة طبعا). و البعض يسعى للتعايش في أي دولة على الارض و الحصول على أكبر قدر من الحقوق المدنية. و البعض يعتبر أنه في مرحلة التقية و

الانتظار (سواء كان المنتظر هو مهدي الشيعة الامامية أم مهدي السنة الذي أصبح كثير من علماء فرقة أهل السنة ينكره نظريا و عقائديا أو ينكره عمليا بدعاوى شتى كأنه "من الغيب الذي لا نعلمه" و نحو ذلك) . و البعض محتار لا يدري أين يقف فهو لا يريد أن يقبل بدولة غير اسلامية و هو لا يرى دولة اسلامية و لا يريد ان يجلس و ينتظر فأصبح اما يعتبر نفسه في مرحلة "الشهادة" أي انه يريد أن يشهد على الأمم باعلان كلمة الاسلام و نشر الدين الحق و نحو ذلك من امور ضبابية الظاهر أنه نفسه لا يفهمها. و البعض كفر بالدين نظريا لكثر ما يرى من اختلافات و عدم تمكين للدين و أهله او غير ذلك من أسباب. و البعض كفر بالدين عمليا في معظم حياته و ان كان يحتفظ بشئ منه هنا و هناك. و البعض أصبح يؤمن بالأمور الروحانية و الباطنية و الملكوتية و ينجذب لها لانها تجعله ملكا بدون أن يحتاج الى أي شئ على الارض , لا خلافة و لا يحزنون , بل و يحفظ الدين كاملا و تكون له قيمته كاملة حيث ان الدين ليس أرضيا بل سماويا , و الخلافة ليست مسألة سياسية بل روحانية . و أخيرا البعض سيفجّر الدنيا كلها و يقتل كل من يقف في طريق قيام دولة اسلامية حتى تتم عبادة الله في الارض- بحسب اجتهاده طبعا!

هذه مقدمة مختصرة للوضع الراهن. و الان, ماذا يقول الشيخ الاكبر ؟

يقول " هذا هو المقام المحمدي الأطهر, من رقى فيه فقد ورثه, و أرسله الحق حافظا لحرمة الشريعة و بعثه".

و هذه الكلمة تحدد بالضبط من هو صاحب السلطة الشرعية للقيام بالشريعة المحمدية. و هو الذي يرتقي روحانيا الى المقام المحمدي الأطهر. فقط لا غير .

هذه الحقيقة البسيطة العظيمة هي التي هاجمها الفقهاء و من شايعهم منذ القدم. و تم استبدالها بغيرها و هذا الاستبدال هو السبب الأول لكل المصائب اذ بقية المصائب تفرّعت عنها, وأخيرا خرجت في هذا العصر خصوصا ثمرة شجرة الفقهاء- و هي شجرة الزقوم على التحقيق- و هي "موت الشريعة". موت الشريعة من قلوب الناس, و موت الشريعة من حياة الناس. و ما بقي من بعض رسوم الشريعة أصبح مثل انسان جميل سليم مسخناه و قطّعناه فلم يبقى منه الا قدمه اليسرى و أظافر طويلة متسخة لا غير.

الفرق بين الحقيقة التي قررها الشيخ و بين ما يعتقده الفقهاء يكمن في ثلاثة أمور أساسية : مانح السلطة, أساس السلطة, و ثمار السلطة.

أما مانح السلطة, فعند العرفاء هو الله تعالى – ليس بالمعنى العاطفي و لكن بالحقيقة أي كما أن الله يبعث الرسل كذلك يبعث من يقوم بدين الرسل فالفقيه الالهي من رسل الله فعلا و حقا. و أما عند الفقهاء فهو أنفسهم و رؤساء السيطرة السياسية. أنفسهم أي باجتهادهم و دراستهم لبعض الكتب و المرويات و أحيانا شئ من السفر الى المشايخ هنا و هناك و بهذا الاجتهاد يستحق في اعتقاده أن يقوم بشريعة الله و يصبح فقيها وارثا للأنبياء و يتحدث باسم الله و الرسول و الدين, و بعد هذا طبعا يوجد اختيار السلطة السياسية و هي التي تحدد و تختار من من هؤلاء الفقهاء سيكون من المقربين و من منهم سيكون من المسجونين او المطرودين او المضطهدين و لهذا الفقيه الدنيوي لا قيمة له بدون الزعيم السياسي (و الفقيه الدنيوي هوالذي يصلي صلاة الجنازة على "اسلامه" هو عندما ينعدم وجود الزعيم السياسي. و هذا بديهي اذ هامان بدون فرعون لا قيمة له). السلطان الديني يأتي من الأعلى, من الحق تعالى. الله هو الذي يختار من يريد منهم ان يقوموا بدينه و بشريعة رسوله و كتابه. كيف يكلّم الله هؤلاء و يوحي اليهم أنه اختارهم هو أمر اخر و لكنه مفصّل في اية " و ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم" و تامل قوله " انا انزلنا التورية فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ". و اني فعلا أتعجب من انسان مسلم- ليس منافق و لا مرتزق- و يجد الجراة في نفسه على أن يقول "قال الله وقال الرسول" بدون اذن مباشر حي من الله او الرسول. أين هو من محرمة " و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون " فان حكم باسم دين الله بدون علم (و ليس لا أدرية و شبه شك و رأيي صواب يحتمل الخطأ و نحو ذلك) فانه قد خر من السماء و ستهوي به الريح في مكان سحيق. و أنى له العلم و الله يقول "و الله يعلم و أنتم لا تعلمون " فمن لمن يريه الله و يهديه و يعلّمه تعليما حيا فأنى له الجرأة ليحكم و ليفتي في دين الله. فهذا الفقيه الدنيوي يزعم بأنه بسبب قراءته لكتب و جلوسه عند أرجل بعض المشايخ قد استحق هذا المقام العظيم . هذا أشبه ما يكون بمن يعتقد بأن النبوة كسبية. فقط لأنه جلس و تأمل قليلا, و هز رأسه بشئ من الاذكار و الاوراد, و صام و اعتكف, فانه بهذا استحق النبوة . كمثل هؤلاء تماما يكون حال الفقيه الدنيوي. بل الاسوأ, أن الفقيه الدنيوي استمد سلطته الدينية من نفسه و زيادة على ذلك طلب الاذن في الافتاء و تفعيل امره من الزعماء السياسيين (و هل نحتاج أن نقول عن هؤلاء على أي أساس يختارون ما يختارون) فالفقيه الدنيوي دنيوي في مصدر سلطته و سفلي في منفذ سلطته, فعندما يكون أمثال هذا هم من اعتقد الجماهير فيهم أنهم يمثلون دين الله في الارض فهل تتعجب من ما كان عليه الحال و ما صار اليه اليوم . ليس لهؤلاء أي اذن من الله في القيام بما قاموا به. و ليس لاحدهم الحق في أن يقول ما يقول اليوم. و اني لا أثق بل استحقر من يتحدث عن دين الله و الرسول بدون أن يعلن بأنه قد أخذ اذنا من الله أو الرسول. و هذه علامة سقوطه في عيني, و علمي بأنه مجرد شخص يريد أن يستمتع في حياته او ينال شيئا من الجاه او نحو ذلك من أسباب سفلية تشبه حاله و حال مصدر سلطانه الديني. فعندما يقول الشيخ الأكبر مثلا أن الله هو الذي يعلمه أو ان الرسول هو الذي أعطاه كذا أو نحو ذلك من تصريحات, فان كلامه هذا ليس مجرد "شطح صوفي" أو "تعبير رمزي" و نحو ذلك, بل هو كلام حق يكشف به عن حق و يبين به عن مقامه الحق. نعم لعلك تقول : و لكن ما أدرانا أن كل من يدعي هذا المقام أنه

صادق في دعواه خاصة و أنك تنكر حجية المعجزات في مثل هذه الأمور؟ الجواب عن هذا له بحث خاص. و لكن اجمالا نقول : اذا عرف الناس أن من شرط من يتحدث في دين الله أن يبين عن حصوله على اذن من الله او الرسول في هذا التحدث و العمل, فان معظم اهل الاسلام و علماءنا الكرام سوف يكفّون عن ذلك, و لن يبقى الا صنفين: صنف صادق, و صنف كاذب منافق, فأما الكاذب المنافق فان الله سيعرف الناس أنه كاذب و منافق,و من أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي و لم يوح اليه , و هذا سيكون عندما يكون الناس أيضا ممن لهم صلة بالله تعالى فمثل هذه الأمور تصبح اوضح, و من كانت له صلة فعلية بالله و أعطاه الله الكشف و الاذن فان علماء الأمة عموما بل و جماهيرها ستنجذب اليه تلقائيا و أما ان كانت الامة مظلمة القلوب دينها هو دين الحيوة السفلية الميتة فانه لا فائدة أصلا من تعريفها بشئ لانها لن تتبع المدعي الصادق فضلا عن المدعي الكاذب . الله حي ، و هو الحافظ لهذه الامه . و ها انت تجد الكثير من علماء الامه يؤمنون بمقامات عظيمه لمثل حضره ابن عربي و مولانا الرومي و يعظمون ما انزل عليهم ربهم من معارف و حكم و اسرار، فكيف ءامنا بهم ؟ هل خرقوا الارض و قلبوا العصا حيه ؟ لا. هل شقوا البحر و طاروا في السماء ؟ لا. هل ادعوا اي دعاوى من هذا القبيل ؟ ايضا لا. فكيف عرفنا ما عرفنا و ءامنا بما ءامنا و عظمناهم كل هذا التعظيم حتى اصبحنا عند البعض من المغالين فيهم و لا زلنا؟ الجواب: تعريف الهي.

ليس كل من له علم بالدين يكون له الحق بالقيام بالدين و تبليغه للناس و تعليمهم اياه. أن تقوم به في نفسك شئ و أن توصل لغيرك هو شئ اخر. اذ من يقوم به في نفسه ان اخطأ أخطأ بجهالة غالبا و جرمه لا يتعدى نفسه و الله غفور رحيم, و أما أن تبلغه لغيرك و تقيمه فيهم فان الخطأ الواحد قد يضل و يضر بل يهلك الملايين على مر قرون , و يكفي كمثال على هذا ان تنظر في رواية او كلمة أو حكم أطلقه أحد فقهاء الدنيا منذ قرون ثم انظر في تأثيرها في الناس الى اليوم (طالما أننا نجلس في بيت حضره المولى ابن عربي, فانظر مثلا في الاحكام الظالمة السفيهة التي أطلقها عليه بعض من غرق في قعر جهنم النفاق و معاداة الاولياء حتى اعتبر أنه ان لم يكن الشيخ الاكبر- حاشاه- كافرا فلا يوجد على الارض كافر ! و بسبب مثل هذا المخذول و حفنة من أمثاله الى يومنا هذا يوجد ملايين من المسلمين المساكين لم ينالوا شرف و عزة ضيافة الشيخ الأكبر و الأكل من مائدته المكرمة, بل كتبه منعت حتى من الدخول الى البلد , فلا هم دخلوا الجنة و لا تركوا الناس تدخل الجنة أيضا) .

فبدون اذن حي من الله لا يحق لأحد أن يتحدث في دين الله على أنه قائم بدين الله. و هذا قول الشيخ "و أرسله الحق حافظا لحرمة الشريعة و بعثه ". لاحظ أن المرسل هو "الحق" فالمرسل من الأعلى, و ليس من الأسفل و الادنى, أي ليس اجتهاد اعتيادي بحفظ شئ من المتون و المرويات و قال و قيل و باضافة شئ من فلسفة هنا و هناك و ترقيع الخروق من هنا و هناك ثم بمثل هذا او حتى أعظم منه يستحق الانسان "المقام المحمدي الأطهر". ان لم يكن الاذن من الله الحي فان القائم ليس من الله في شئ و الدين الذي يقوم به أيا كان فهو ليس من الله في شئ. و

المهم هو الجوهر و الروح التي يبثها الداعي و القائم, و عندما يعطي الله الاذن فانه ينفخ روحا في القائم, و هذه الروح تسري في تعليمه و ليس بالضرورة أن يكون التعليم مجلدات ضخمة أو نحو ذلك من شكليات, بل مجرد حضور مثل هذا له تأثير وجودي في الأمة خصوصا عندما تقبله و تلتف حوله. فانظر الى القرءان الكريم, نحو 600 صفحة فقط , فان كان معيار الارسال من الله هو مقدار و كثرة حجم الكتب و التعاليم التي يأتي بها المرسل لكان النبي عليه السلام من أصغر الرسل -حاشاه. اليوم يأتي شيخ و يكتب فتوى واحدة في مسألة واحدة فيظهر لنا كتابا حجمه نحو 600 صفحة . (انظر كتاب الدكتور طاهر القادري عن الفتوى ضد الارهاب كمثال) ليست العبرة بالشكل, بل و ليست حتى العبرة الاساسية بالمضمون الظاهر, العبرة الحقيقة هي بالروح التي يبثها وجود مثل هذا الرسول والوارث. أولا الروح و ثانيا المعاني المفهومة و ثالثا الشكليات. هذا هو السلّم الحقيقي للحكم في الدين وشؤونه. فمن لم يكن له قلب صاف لاستقبال هذه الروح, فليمت يهوديا او نصرانيا فلا فرق . و أما الحكم بالظاهر فهو شأن الحيوانات و الوحوش فانها تحكم بالظاهر أيضا , ألا ترى أم القطط اذا رأتك تقترب من ابناءها هجمت عليك دفاعا عن أبناءها بالرغم من أنك في الحقيقة لا ترغب في أذية ابناءها بل لعلك تخاف من القطط أصلا. و لكن هكذا هم الحيوانات يحكمون بالظاهر في الغالب الاعم, و هذا هو شأن فقهاء الدنيا الذين أقاموا كل فلسفتهم الشرعية على أساس الحكم بالظاهر حتى لو خرج الباطن و صفعهم على وجههم فانهم لا يحكمون به , و من المتوقع أن الحكم بالظاهر يؤدي أيضا الى قتل الانبياء لانهم زنادقة يريدون أن يحرموا ما أحل الله و يحللوا ما حرم الله "و لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم" فسعوا في صلبه وقتله، المسكين . و ما ذنب الذين حكموا بذلك لعلهم سعوا الى حفظ مقاصد الشريعة و التي أهمها حفظ الدين, و هذا الذي يريد أن يحلل ما حرمت الشريعة انما يريد ان يبتدع في الدين و يحرف فيه و المبتدع اذا لم يمكن ايقافه عن نشر بدعته الا بقتله فيجوز قتله أليس كذلك !؟ الحكم بالظاهر كما يمارسه فقهاء الدنيا يجعلهم كما وصفهم الشيخ الاكبر "فراعنة الاولياء و دجاجلة عباد الله الصالحين" و هل أراد فرعون أن يقتل موسى الا لانه خاف أن يكون موسى سببا للشر "ذروني أقتل موسى و ليدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد " . ففرعون أراد أن يحفظ مقاصد الشريعة أيضا فسعى لقتل موسى ولي الله و كليمه !

أما أساس السلطة, فالفقيه الالهي روحاني الأساس, جهاده معنوي نفسي باطني, و همه كله منصب في هذا الاتجاه و هو تزكية النفس و تصفية القلب و بهذا يتعرّض لرحمة الله و ان رحمت الله قريب من المحسنين فان شاء الله أن يختاره لشئ من عمله و يوليه اياه فعل و لكن بأي حال من الاحوال لا يدّعي هذا الروحاني أنه أصبح يستحق القيام بأمر دين الله فقط لانه قام بهذا الجهاد الباطني, بل هو أمر راجع الى الله و هو أصلا لا يقوم بهذا الجهاد لانه يريد شئ من العمل الاجتماعي أصلا بل انه ما خيّر ولي بين العزلة و الاجتماع الا اختار العزلة (كما يقرر الشيخ) فهي أصلا ليست شئ يرغبون فيه لو وجدوا مجالا للفرار منه فضلا عن أن يسعوا اليه. و أما الفقيه الدنيوي فمادي الأساس, سعيه دماغي بشري يحفظ المعلومات و يحمل الاسفار كمثل من تعرفون, و شغله هو الذاكرة و التلقين و

شئ من التفكير, و ما ان يحفظ بعض المتون و شئ من قال وقيل حتى يبدأ يتصدر لتعليم الناس دينهم و الفتوى بعد ذلك بقليل ان وجد من يستفتيه اللهم الا ان تورع قليلا عن الافتاء فانه ينتظر حتى يقرأ كتب اكثر و يحفظ أكثر, فالأمر كله يعتمد على مقدار تحصيله المعلوماتي و شئ من القواعد التي تعينه على الافتاء و الحكم و الاستنباط. و لذلك يوجد فقيه دنيوي خبيث و جامد و متوحش و سئ الخلق و ميت القلب و سطحي العقل بل لعل أكثرهم كذلك و الاستثناء فيهم هو غير ذلك, و أما الأصل في الفقيه الالهي بل هو القاعدة المطردة أن يكون بعكس ذلك ذلك طيبا كريما عالما عميقا مؤثرا من اتصل به اتصل بالله. و لهذا تكون الروحانية في الجماعة التي فقيهها الهي غالبة, و تكون السخافة و السطحية و القسوة في الجماعة التي فقيهها دنيوي غالبة. لأن أساس كل منهما يختلف عن الاخر. و الجماعة لا ترقى فوق مستوى و حال امامها و أميرها. فمن كان امامها في أسفل سافلين هل من الغريب ان تكون في قعر الجحيم. وأما كون الامام في أعلى عليين لا يعني أن تكون جماعته كذلك معه فقد تكون و قد لاتكون. فمجرد أن يكون الامام في مقام عالي فانه يكون قد فتح المجال لاتباعه أن يرتفعوا الى مقامه, و ان كان ذو مقام سفلي فانه يكون حاجزا و حاجبا لهم.

و من هنا نصل الى أهم ثمار السلطة, فعند الفقيه الالهي تكون الثمرة انتشار الروحانية و اعتبار الدنيوية شذوذ و استثناء, و عند الفقيه الدنيوي تكون الثمرة عنف و غضب و اهتمام بالمظاهر يطغى على الاهتمام بالبواطن و دعاوى عريضة من حدثاء أسنان و سفهاء أحلام و أخيرا موت الشريعة. الفقيه الالهي يعمل على أساس معادلة 90% روح و 10% جسم, و أما الفقيه الدنيوي فيعمل على أساس معادلة 99% جسم و 1% عقيدة مسخرة لخدمة ال99% فقط. و لذلك نظرية "الجماهير حمير" هي من ثمار الفقه الدنيوي, و من هنا عندما انفك حصار فقهاء الدنيا هؤلاء عن جماهير الامم الاسلامية- الحمير بالطبع- و تعرّض هؤلاء لاغراءات مادية و بهلوانية و دنيوية بكل معنى الكلمة من الثقافة الغربية الميتة- و لكن المبهرجه و الممتعه مؤقتا للانصاف- استطاع الغرب أن يؤثر عليهم تأثيرا رهيبا و بسرعة نسبية بل الى درجة ان فقهاءهم أنفسهم أصبحوا يعدّلون فقههم و طريقة عرضهم لفكرهم (على اعتبار أن عندهم ما يسمى فكر) حتى يستطيعوا ان يجذبوا انتباههم و اهتمامهم بهم بعد أن خسروا شعبيتهم لصالح القوى الغربية, و للانصاف: ان كنا نريد هذه الدنيا فدنيا أمريكا و أوروبا خير من دنيا الفقهاء بسبعين ألف مرة . و هل عند الفقهاء دنيا أصلا أعطوها للجماهير ؟! انما كان عملهم هو التأسيس الديني للسلطة السياسية و اخضاع الناس لها قدر الامكان, فأي دنيا أعطوا الجماهير, انما هي دنيا جهنم و عذاب السعير. فلما استطاعت الجماهير "الاسلامية" أن تنفك من حصار ال 99% من الفروض الشرعية بسبب غياب دولة الخلافة و بغياب وجود حكومة فعليا يمكن ان تفرض الشريعة- شريعة الفقهاء- كاملة, فان الشعوب الاسلامية وجدت 99% من حياتها حرة طليقة بدون أي فرض و أي طغيان عموما. فماذا تفعل بهذه الحرية الجديدة ؟ نظرت حولها فلم تجد ما تملأها به, فعرض عليها الغرب ما يملأ هذا الفراغ, فالتهمته بنفس السرعة و السطحية العمياء التي كانت تلتهم

فيها شراب الحميم الغسلين الذي كانت تتجرعه من قبل من الفقهاء و أربابهم و من شايعهم, و بالطبع ان ال 1% من العقيدة الذي كان الفقهاء يقطّرونه في أفواه الجماهير في سبيل اعطاء تعاليمهم شرعية من الله تعالى, حتى يكون زاجرا و رقيبا من الضمير, لم ينفع شيئا بعد زوال القوة التي كانت تفرض ال99% من الاوامر و النواهي, فعندما دخل الغرب ب 99% جديدة من المظاهر و الظواهر و الدنيويات و الالعاب و الزينة و المفاخرات و الالوان, لم يصمد 1% العقيدة الذي كان في الجماهير, فماتت شريعة فقهاء الدنيا من قلوب الناس و حياتهم غير مأسوف عليها.

و لكن ما يحزن هو أن الجماهير أصبحت لا تأبه فعليا لأي شريعة و دين اللهم الا قليلا. (و ما يقال من "احصائيات" يزعم البعض أنها تدل على أن الشعوب العربية و الاسلامية أصبحت تسعى للعودة الى الدين و ما أشبه, انما هو نصفين: نصف تخرص, و نصف هو في حد ذاته مصيبة لان من يرجع منهم يرجع غالبا الى نفس دين الفقهاء و هو الدين بمعناه السفلي الدنيوي السطحي الذي لا يساوي فلسا في سوق الحقيقة, حتى و ان تسلى بعضهم بفلسفة عقلية و شئ من الجدليات و الخطابيات التي يدعي الان ان دينه أصبح "علميا" متينا بسببها, و "هيهات هيهات لما توعدون"). و اذا أردنا أن نعرض عليهم دين ال90% باطن يبنى عليها 10% ظاهر, فانك ستجد حواجز و عقبات لا يعلمها الا الله, و على القلوب جبال لا ينسفها الا الله. و قد تعودت الجماهير على السطحية و الغرق في الارضيات بل ماتحت الارضيات بل في الوهميات المحضة على مر قرون, و الان بعد ان امتلأت القلوب بجثث الغرب و أصبحت كالقبور فأنى لمثل هذه أن تتفرغ لتمتلئ بماء الحياة ؟ اللهم رحمتك و لطفك. و ان كان للناس أن يتخذوا سببا لتخلية السبيل فهو التالي: يجب على كل من له شأن بالدين الاسلامي من مفكر و كاتب و متحدث و خطيب و داعية, و على كل من يملك مالا زائدا يستطيع انفاقه بدون أن يؤثر على مستوى معيشته المقتصدة الطيبة, و على كل من له صلة بالحيوة الاجتماعية و الحركة فيها أن يسعى الى نشر ميراث العرفاء. و أخص بالذكر اثنا عشر منهم: محي الدين ابن عربي, جلال الدين الرومي, حيدر الآملي, ابن عطاء الله السكندري, رينيه غينون, فريثجوف شوان, سيد حسين نصر و محمد النفري و فريد الدين العطار و عمر الخيام و الحلاج و حافظ الشيرازي. أجمعوا كل ما كتبه هؤلاء, حتى لو وجدتهم أنهم كتبوا سطر على ورقة متسخة ملقية في مزبلة فخذوها و نظفوها و انشروها, و ترجموا كل اعمالهم الى اللغات الاساسية للبلاد الاسلامية كالعربية و الفارسية و الاردية و نحو ذلك. و اطبعوا أكبر عدد ممكن, و خذوا من أموال الزكاة قسما و انفقوه عليها, حتى تنتشر نسخ أعمال هؤلاء في كل بيت (اجعلوا هذه غاية). ثم أقيموا مجالس حولهم, انشروا صور لهم, و اعملوا افلام و مسلسلات عنهم, تغنوا بهم, اعملوا كل ما من شأنه أن يرفعهم في أعين الجماهير و يثير الاهتمام بهم. اذا انتشر أعمال هؤلاء الاثنا عشر بين الناس و قبلوها و درسوها فأنا أقسم بأنه لن تمر أربعين سنة الا و الامة الاسلامية قد قامت كما لم تقم من قبل بل اكبر من ذلك باذن الله و لطفه و عنايته. و أكاد اقسم بأنه ان انتشر تراث اعداء هؤلاء و اشباههم, أو لم ينتشر تراث العرفاء, فانه لن يأتي القرن الجديد الا و سيكون من يقول

"الله أكبر" علنا في البلاد العربية و الاسلامية يساوي في أعين الناس من يقول "ابليس أكبر" و هو واقف على سطح الكعبة اليوم . "و لكل نبأ مستقر و سوف تعلمون " .

ب) القيام بالشريعة هو شأن من شؤون النبوة. بل هو فرع لها. النبوة هنا بمعنى الاستمداد من الغيب بكل مستويات الاستمداد. و الشريعة ليست أحكام قانونية جافة. الحكم ثمرة العلم و الايمان. فالأصل هو العلم و الايمان, و هو المكان الذي نبذل فيه جهدنا معظمه بل كله, و ما الحكم الا ثمرة عفوية تلقائية تتفرع عن العلم و الايمان الخاص بهذا الحكم. و "من لا كشف له لا علم له " كما قرر الشيخ, و من لا شهود له لا ايمان له. و بالتالي يمكن أن نقول بناءا على ذلك: من لا كشف له و لا شهود له فلا شريعة له. هذا هو دين الحق: كشف يؤدي الى علم, و شهود يؤدي الى ايمان, ثم جبرائيل العلم ينفخ في رحم مريم الشهود فيولد عيسى شريعة الحق. و هكذا في كل مسألة صغيرة و كبيرة من شؤون الشريعة. لا يوجد في شريعة الله "المصلحة" الميتة التي يتحدث عنها فقهاء الدنيا. شريعة الله لا تنبت من المصلحة الدنيا و لكنها تتنزل من الحقائق العليا. الدين يتنزل من أعلى و لا يستخرج من أدنى. هذا أكبر مبدأ على الاطلاق في دين الله. أي ان الحقيقة تأتي من الأعلى الى الأدنى. و بهذا المفتاح ينفتح باب ينفتح منه ألف باب من العلم. و هذا هو معنى "اقرأ باسم ربك الذي خلق" و هذا الاسم هو الأعلى, لقوله "سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق". و اسم الله حقيقة واقعية و ليس حروف عربية, فاسمه حقيقته. فالقراءة باسمه الأعلى هي هذا المفتاح الأعظم الذي ذكرته لك. و هي أن تقرأ الامور كلها من الأعلى الى الأدنى. من المبادئ العليا الى الامثلة الدنيا. و كل من أوتي هذه المبادئ العليا و علمه الله كيف يقرأ باسمه الأعلى فهو نبي, و للنبوة درجات. فالنبوة بهذا المعنى و الرسالة بالمعنى الذي ذكرناه سابقا هو ما يشير اليه الشيخ في قوله " هذا هو المقام المحمدي الاطهر, من رقى فيه فقد ورثه" المقام المحمدي هو مقام مجرد عن "محمد التاريخي" فافهم, المقام المحمدي هو اسم للمقام الأعلى الذي بالارتقاء اليه ينال النبوة و الرسالة من ينالها او ينال شئ منها بواسطة من رقي هذا المقام او روح من رقي اليه. فالمقام المحمدي كمثل ان نقول "الطبيب". فالطبيب مقام و ليس شخص, الشخص الذي يرتقي الى هذا المقام بشروطه يصبح "طبيب". كذلك "المقام المحمدي" كما هو واضح من النص يعتبر "المقام" فمن رقي اليه "فقد ورثه" كما انه في مثال الطبيب مثلا من يرتقي الى هذا المقام بالذهاب الى كلية الطب و النجاح في الاختبارات و نحو ذلك يصبح "طبيب" أي قد ورث مقام الطب. (و بالمناسبة, قد ضرب الامام علي عليه السلام مثل للنبي محمد بأنه "طبيب دوّار بطبه " فالمثل محكم و ليس اعتباطي فتأمل) . و هكذا الحال في المقام المحمدي الأطهر فانه من رقي اليه فقد ورثه. فهذا أولا. و مما يترتب على هذه الوراثة أو قد يترتب عليها هو " و أرسله الحق " و هنا مقام الارسال "و بعثه" فلاحظ أنه استعمل الكلمتين الارسال و البعث, و هي نفس الكلمات القرءانية الواردة في هذا المجال, فاستمرارية النبوة و الرسالة و البعث بهذاالمعنى هو أمر واقع و حق, و الكفر بهذه المقامات مسبقا لسبب او لاخرهو الحجاب الاكبر الذي يحول دون الناس و دون الارتقاء اليها و رجاء رحمة الله بها و منها.

فالشيخ يحدد منازل و مقامات يسير فيها الانسان حتى يبلغ "المقام المحمدي الأطهر", أولها "رقى فيه" و هو السير و السلوك الروحاني في العوالم, و ثانيها "فقد ورثه" و هذا يتضمن طبعا توفيق من الله و اصطفاء و هو متضمن بل هو الهادي من قبل السلوك و أثناءه و بعده, فالوراثة هي النتيجة الاولى, و فيها يتم أخذ الميراث المحمدي من قبل كل راقي بحسب قربه من الله تعالى و المقام الأطهر فالذكر يأخذ أكثر من الأنثى و هكذا بحسب تقاسيم الميراث الظاهري فكلما كانت بين الانسان و بين تلك المقامات العالية روابط اكثر كان حظه من الميراث اكبر, فمن كان أب و أم و ابن و بنت و زوج حظه كامل و تأويل ذلك في محله. و الميراث هو العلم و الكتاب و الحكمة " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا" بالاضافة الى وراثة المقامات و الحقائق و الواردات و الاحوال و التي هي باطن الكتاب و ثمرته. و بالطبع كل انسان حظه من الميراث بحسب حظه من القرب و الجهاد و بحسب أجزاءه التي دخلت في الجهاد الروحي فمن كان مع الله بجسمه و عقله ليس كمن كان مع الله بجسمه و عقله و قلبه و روحه و سره و سر سره و نحو ذلك. و الله المتفضل بالزيادة من وراء كل ذلك. ثالثها "أرسله الحق" و هنا النزول من ذلك المقام الأطهر, الذي هو سدرة المنتهى اذ لا أطهر منها في المقامات الانسانية , و ليس فوقها الا ذات الرب القدوس "و ان الى ربك المنتهى" و هنا تبدأ المقامات الالهية و لايوجد طهارة و انما قداسة. و من هذا النزول تكون الرسالة في خصوص أمة محمد التي هي أوسع الأمم و أكملها كشفا و علما (كما يقرر الشيخ) و ذلك لأننا نستمد من المقام الأطهر و الأعلى بالنسبة للانسانية, و أما ما فوق ذلك من المقامات الالهية فان من يبلغ اليها لا يبعث في اطار امة محمد بل انه يكون رسول للرسل, لانه يأتي من ذات الله و ليس من مقام الخلافة عن الله الذي هو المقام المحمدي الأطهر, و من جاء من رب العزه ليس كمن جاء من السدرة, و ان كان الغالب أن من يبلغ الى الذات لا يكون فيه عقل يتحمل أن ينشغل برسالة و وراثة و بعثة و ان كان أهل الوراثة يشمون رائحة ذلك المقام بحكم القرب و التجلي و الهدايا الالهية الواردة عليهم, بل ليس للخلافة قيمة الا التوجه نحو الذات الالهية بها في نهاية التحليل. و من العرفاء و الاولياء من يجعل بين المقام المحمدي و المقام الالهي, فيكون الهيا محمديا, و هؤلاء هم خواص الخواص. و ليس فوقهم أحد على الاطلاق, لانهم نالوا شرف الذات و نالوا شرف خليفة الذات, و ليس فوق ذلك شئ أبدا. المهم الان هو مقام الوراثة و الرسالة المقيدة في اطار شريعة منزلة, فان البلوغ الى أعلى من ذلك أو بلوغ من ليس لأمته شريعة مخصوصة الى المقام المحمدي يؤدي الى ظهور رسالة جديدة بحكم "لكل أمة رسول" .

و أما في اطار أمة لها شريعة منزلة, فان المرسل يكون "حافظا لحرمة الشريعة" فليس مهمته الطعن فيها و تسطيحها و تزويرها و غير ذلك, بل هو "حافظا لحرمة" و هذا هو دورهم الاجتماعي- السياسي, لان حرمة الشريعة تحفظ أولا في نفس العارف و الفقيه الالهي, و ثانيا في المجتمع الذي يتحقق فيه مقام "و بعثه " و استعمال الشيخ لكلمتي "ارسله" و "بعثه" ليس من قبيل الترادف او الزخرفة الفارغة-حاشاه. بل انهما يعبران عن مقامين, الارسال يكون للنفس, و البعث يكون للغير. فأول أرض يجب على الوارث أن يحفظ فيها حرمة الشريعة هي أرض نفسه, "و ما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه " و "أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم". و قد فصّل الشيخ ذلك أيضا في كتابه عنقا مغرب و استند الى رواية "كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته" لاثبات امامة كل انسان في نفسه

و أن عقله العالي هو الراعي و أعضاء مملكته النفسية و الجسمانية هم الرعية, و عليه أولا أن يحفظ حرمة الشريعة في نفسه, و هذا هو الارسال الأول و هو تحت "يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم". ثم بعد ذلك ياتي الأمر بالبعثة للغير بقول الشيخ "و بعثه". فمن لم يقم الخلافة في نفسه لن يقيمها خارجه, و هذا هو بالضبط ما يغفل عنه من يصرخون ليل نهار رغبة في قيام خلافة اسلامية في نفس الوقت الذي يحكم نفوسهم ابليس مع شياطينه ! فهم يريدون أن يقيم لهم الله حكم الهي خارجهم بالرغم من أنهم رضوا و تعبدوا للحكم الفرعوني في أنفسهم. كلا ثم كلا. "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فانظر الى نوعية الحكم في نفسك, و هذا هو الحكم الذي سيكون خارجك. فمن أراد أن يرى المهدي أمامه يحكمه, فليأتم بالمهدي أولا في نفسه و قلبه. و من ضيع رعيته فهو لرعية غيره أضيع. و لهذا لا يبعث الله رسولا الى الناس الى بعد ان يكون قد بعثه الى نفسه أولا, فان أفلح قال له "أنذر عشيرتك الأقربين" و ان فشل قيل له" و ما منّأ الا له مقام معلوم".

فالرقي هو مقدمة استقبال الميراث, و الميراث مقدمة العمل به في مملكة النفس, و العمل به في مملكة النفس مقدمة العمل به في القوم و البلاد. و توفيق الله أولا و اخرا و ظاهرا و باطنا يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم. فمن أتم هذه المنازل الأربعة- الرقي و الميراث و العمل النفسي و العمل القومي- فانه يكون "محمد" الزمان بحسب درجته في المحمدية.

و لنكتفي بهذا في هذا المقام "ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد" و الحمد لله رب العالمين.

3 (أنا القرءان)

كما صرخ مولانا الحلاّج المقدس " أنا الحق " صرخ شيخنا ابن عربي الخاتم " أنا القرءان ". العارف لا يتكلم الا بحق, و قول الحلاج و قول ابن عربي حق. و ليس "بشطح" و لا "سكر" و لا مبالغة صوفية شاعرية و نحو ذلك من تفسيرات غريبة على مجال العرفاء الأخيار. بل كلا الصرختين حق نبع من حق و يؤول الى حق, و قد "جئناكم بالحق" الا أنه "أكثركم للحق كارهون".

ما الفرق بين "أنا الحق" و "أنا القرءان" , أليس القرءان هو الحق أيضا فلماذا تخيّر شيخنا ابن عربي –رضوان الله عليه- و هو دائما دقيق في اختيار كلماته و عارف بدقائق و أسرار كلمات العرفاء و الأنبياء اذ لا ينطق و لا يكتب الا عن كشف الهي, فلابد أنه كان واعيا بالفرق بين أن يقول "أنا الحق" و أن يقول "أنا القرءان", ثم ان للشيخ الأكبر نظرياته الخاصة في كل المسائل العرفانية, و كان يرى أنه هو احد حملة العرش بل من أعظمهم ان لم يكن أعظمهم, و يرى أنه المحقق التام و العارف الكامل و خاتم الأولياء, و هذا يعني أنه كان يرى نفسه في القمة بحيث أنه ليس وراءه شئ من الحقائق لم يتحقق به بنحو او باخر, و حيث ان كلمة الحلاج "أنا الحق" متعلقة بذات الله, و أما قول ابن عربي "أنا القرءان" متعلقة بكلام الله, و حيث ان مرتبة الذات أعلى من مرتبة الكلمات, فكيف رضي الشيخ بأن يماهي نفسه مع الكلمات و لا يماهي نفسه مع الذات ؟

الجواب: لانه لا يمكن أصلا لأحد أن يتماهى مع الذات. و الحلاج عندما يقول "أنا الحق" فانه بالحق لا يقصد الذات في المرتبة الأحدية- اذ "كل شئ" انما هو على التحقيق هذه الذات الاحدية اذ ليس في الدار غيره ديّار. و الذات الاحدية في هذه المرتبة المحيطة لا ضد لها لا في التحقق و لا في الوهم. و أما "الحق" ففي مقابله "الباطل" و لذلك فان الحق ينتمي الى سلّم العوالم و هو في مرتبة عليا في هذا السلّم. و يبدأ الحق في رتبة العرش. اذ الله هو الذي يحكم بأن هذا حق و هذا باطل. و حكمه ملكه, و ملكه عرشه. و قول الحلاّج "أنا الحق" يمكن أن يفهم بهذا النحو بفهمين: فهم يؤدي الى جعله عارفا كاملا, و فهم يؤدي الى صلبه ! و كالعادة فان غير العارف لا يعرف العارف, و الفقهاء و من شايعهم لا حظ لهم في العرفان الا كحظ ابليس في الجنة, فانهم فهموه بالفهم الثاني فصلبوه.

الفهم الثاني السقيم خلاصته هكذا: الحلاج جعل نفسه الحق, فكل ما يقوله حتما حق و كل ما يخالفه فهو حتما باطل, و هذا يعني أن تعيين الشريعة و القانون العملي في الدولة و البلاد يكون في يد الحلاج, و هذا ثورة ضد الدولة التي انما تقوم شرعيتها على كونها حافظة للشريعة, و ثورة ضد الفقهاء الذين انما تقوم شرعيتهم و جاههم على أنهم أرباب فقه نصوص الشريعة, و لذلك يجب أن نقتل الحلاّج الذي انما هو دجّال ماكر يريد أن تكون له الكبرياء في الأرض و الحكم و السلطة على الناس. فقول الحلاج "أنا الحق" يساوي من حيث الواقع و المآل خروج عصابة مسلحة ضد الدولة. فالحلاج قتل على أنه زعيم سياسي و ليس على أنه عارف الهي.

و من اللطيف في الأمر أن شيخنا ابن عربي في الفتوحات يقيم علاقة بين الحلاج و المسيح عيسى. و الظاهر ان السبب العقلي لاقامة هذه العلاقة هو كون الحلاج كعيسى (بالفهم التاريخي الذي يماهي بين عيسى القرءان و يسوع الناصري العبراني رب الصليبين) من حيث ان يسوع قال أيضا ما مضمونه "أنا الحق" و من حيث أن يسوع انتهى به الأمر الى الصّلب أيضا. (مع تحفظ على تفسير هذا الصلب). و السبب الذي جعل السلطات الرومانية تصلب يسوع هو نفس السبب الذي جعل السلطات الفقهية تصلب الحلاج. و للانصاف فان عمل السلطات هذا ليس خلو تماما من المنطق و الحذر الذي يقتضيه عمل هذه الدول عموما. و ان كان يعتبر اجحافا و ظلما بحسب منطق العرفاء و الروحانين. و لكن يجب أن لا يحول بيننا و بين الانصاف كوننا ننتمي الى دائرة لها منطق خاص نخبوي مغاير لمنطق الدوائر الأخرى. و أما منطق السلطات الدنيوية فهو هذا: كونهم لا يؤمنون بأي حق متعالي و لا يفقهون من الحياة الا هذه الحيوة الدنيا في المرتبة السفلية المظلمة, فانهم لا يستطيعوا أن يسمعوا الا أمور سفلية و كل ما يجدونه حولهم يفسرونه بمعيار "مع أو ضد" أي اما معنا و مسلّم لسلطتنا أو ضدنا و رافض لنا بدرجة أو بأخرى. و عندما يقول أحد "أنا الحق" أو "أنا رسول الحق" فان المعنى بالنسبة للسلطة واحد كما قال فرعون لموسى و هارون : " و تكون لكما الكبرياء في الارض" أي ان هدفهم أيضا سياسي سلطوي و لكن حيث ان موسى و هارون و يسوع الناصري و الحلاج و البقية لا يملكون جيشا جسمانيا- قوة سفلية- فانهم يتوسلون بالمقولات الروحانية التي مآلها النهائي هو تأسيس سلطة حكومية دنيوية. فعندما يقول أحد "أنا رسول الله الملك الذي يحكم كل شئ" فان هذا يعني : يجب أن أملك أنا كل شئ. اي من حيث التنفيذ و العمل و التطبيق. فضلا عن أن يقول أحد "أنا الله" ! فمدّعي الرسالة لا أقل أنه يقيد نفسه في حدود الرسالة- حتى لو كان هو الذي ابتدعها من عند نفسه- و لكن الذي يدّعي الالوهية فانه لا يقيّد نفسه بشئ بل يضع نفسه في مقام "لا يسأل عما يفعل و هم يسألون" و "فعّال لما يريد" و "الله يحكم لا معقّب لحكمه". فكل دولة أو سلطة آمرة تقيم سلطتها بناءا على سند . و تحيط هذا السند بجيوش و حصون حتى لا يتم اختراقها من قبل أي أحد. و الدولة التي تقيم سلطتها على أساس أنها مظهر الحق او القائمة بالحق, يجب أن تحيط "الحق" بحصون و قلاع حتى لا يقترب منها احد و لا يدّعي أن له وصلا بها فضلا عن غير ذلك. و ما قام به الحلاج و يسوع يفسّر على أنه ليس فقط محاولة لادعاء الصلة مع الحق, و لا حتى مجرد منافسة السلطة في ادعائها انها على حق, بل انه تجسيد كامل للحق في شخص المدّعي. "أنا الحق". و ليس "أنا حق". بل "الحق" فهو تجسيد كامل و تقييد شامل للحق في شخص هذا المدّعي. و هذا يعني ان سند سلطتنا قد زال تماما, و يجب أن يكون الحاكم هو الحلاج, اذ الحق أحق أن يتبّع. فاذا أضفت الى كل هذا أنه فعلا وجد و لا زال يوجد بين من يدّعون أمثال هذه الدعاوى من فعلا ليس لهم أي اهتمام حقيقي بالله تعالى, بل انما يتوسلون بهذه الطرق الصوفية لكسب سمعة او جاه أو مال أو سلطة و سيطرة, و ينظمون أنفسهم في تنظيمات سرية لها دعوة سرية و وكلاء لأخذ البيعة في الدولة المختلفة (و قد شهدت بعض هؤلاء بنفسي, و عرضوا علّي مثل ذلك) فان حذر السلطات منهم ليس من دون منطق و مبرر كما ترى. فبالنسبة للسلطة الدنيوية الفرعونية: أنا رسول الله و أنا الله هما شئ واحد بالنسبة لهم. أليس في المحصلة أن "من يطع الرسول فقد أطاع الله" . فما الفرق بين أن يقول "أنا الله" رأسا و

مباشرة, و بين أن يأتي بها بعد لف و دوران مثل "أنا رسول الله". لا فرق. اذ من حيث "التطبيق العملي المادي" الثمرة واحدة, و هي تأسيس سلطة شاملة محتكرة للحق. و هذا ثورة و أي ثورة على الدولة. و الثورة تقابل بالقتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي و الأرجل من خلاف أو النفي من الارض. ذلك لهم خزي في الحيوة الدنيا و لهم في الاخرة عذاب عظيم. كما فعل فرعون تماما.

هذا بالنسبة للفهم الثاني السقيم, و كما قلت فان مثل هذا الفهم قد كان سببه تحوّل الدين من الحيثية العرفانية الى الحيثية السياسية. أيا كانت الذريعة و أيا كانت الفلسفة وراء هذا التحوّل. اذا كان للدين جانب سياسي, فان الدين سيكون دائما متهما و أنصاره مضطهدين و اربابه مقتولين مسجونين مصلوبين. و أي دين "عرفاني" يتحول الى دين "سياسي" بعد أن تتم له السلطة و الدولة فانه سيتحول حتما الى دين فرعوني هاماني قاروني عاجلا أم آجلا. و اذا نظرنا الى تاريخ الاسلام سنجد مثل هذا تماما. فبعد وفاة مولانا محمد عليه السلام, فان الدين تحوّل الى دين فرعوني لا يفترق في شئ عن أي سلطة دنيوية فرعونية اللهم الا في قليل هنا و هناك مما لا يؤهبه به فعلا. فبداية من وفاة النبي بدأ النزاع على السلطة, ثم استمر الخلاف حتى تصاعد في زمن الدولة الأموية ثم تعددت الدول المتحاربة (التي استعان بعضها ب "الكفار" على قتال "المؤمنين") ثم انتهى الامر اليوم بزوال اسم الخلافة الاسلامية من الارض و أصبحت الدول كلها في الواقع دول علمانية دنيوية لا شئ من الدين الحقيقي فيها (حتى الدين بحسب ما يفهمونه هم) اللهم الا قليل من قوانين القتل و القطع و شئ من الاحوال الشخصية كما ذكرنا من قبل فلا نعيد. لا يمكن الثقة بالحكمة الالهية لدين يريد السيطرة على الناس و الارض. و لا بدين يجعل أربابه أنفسهم وكلاء على الناس. و عندما قال الله تعالى لنبيه "لست عليهم بمسيطر" و "لست عليهم بوكيل" و "لست عليهم بحفيظ" فان مثل هذه الايات ضرب بها عرض الجدار, و "نسخت" او تغافل الناس عنها أو قيدوها بقيود سخيفة فارغة من المعنى الواقعي. على كل حال, فان النتيجة هي أنه فعلا أصبحت السلطات ترتاب من كل دعوة دينية مهما اشتدت في التجريد و العلو الروحاني, فانهم أصبحوا يعتبرون – و الجماهير معهم في كثير من الاحيان- أن كل هذه الافكار ما هي الا حيل سياسية لكسب الأتباع و من ثم تأسيس دولة. و عندما قال الله "اتبعوا من لا يسألكم أجرا" فان مثل هذه الايات و التعاليم ضرب بها عرض الجدار كأنها زخرف لا قيمة له, و أصبح للداعي و النبي و الامام حصة في أموال الناس باسم خمس الغنائم أو الزكاة (كلها نصوص قرءانية أخذت بتفسيرات- بل تحريفات- سفلية دنيوية من قبيل من ينظر الى ايات التجسيم فلا ينظر اليها بعين ايات التجريد و العلو فيضل و يسجن) و بالتالي أصبح للدول مزيد داعي الى الحذر من أرباب الدين هؤلاء, فهم من ناحية يكسبون الأتباع بفكرة "أنا الحق أو أنا رسول الحق أو أنا وارث رسل الحق" (و كلها كلمات مختلفة و المضمون النهائي واحد) و يكسبون الأموال بأحكام الزكاة و الخمس و الصدقة . فتكون النتيجة: أن عندهم قاعدة جماهيرية تعتقد بأنهم يملكون سند الحق و هو سند أي دولة شرعية, بالاضافة الى امتلاكهم القوة المالية, و لا ننسى امتلاكهم أيضا لجيش من الناس و الجماهير الذين هم على استعداد من أجل "الموت في سبيل الله والحق" و هل يوجد غير هذه الأركان الثلاثة لقيام أي دولة: اتباع مؤمنون

بأحقيتها, و جيش شبه انتحاري يدافع عنها, و اموال كثيرة تصرف بها شؤونها. هل يوجد غير هذا ؟ لا يوجد طبعا. بل تقوم الدول بأقل من هذا بكثير.

فعندما أدخلت نفسي في عقل فرعون وجدت أن هذا او قريب منه هو منطقه في حرب موسى. و مثل ذلك كل الفراعنة و كل موسى. فضلا عن لو كان دجالا يزعم أنه موسى.

فان أردنا للعرفان أن يبقى كريما معافى و أهله في عزة يجب أن لا يقترب العرفاء من أي شأن سلطوي دنيوي بأي حال من الاحوال- على الاقل من حيث أنهم عرفاء. نعم قد يشاركوا في هذه الأعمال السلطوية و لكن من حيثيات أخرى بحسب شروط هذا العمل المقبولة في البلاد و بحسب شروط الكفاءة الخاصة في هذه الأعمال. فكما أن العارف لا يستطيع و لا يحق له أن يطالب بأن يكون طبيبا او مهندسا بحجة أنه عارف بالله كذلك ليس له أن يسعى أن يكون حاكما اداريا او قاضيا بحجة انه عارف بالله. فلكل عمل شروطه.

الدين السياسي في نهاية المطاف سيهلك و يفنى. لان دين الحق مرتبط بالحق الأعلى, و غايته رفع الوعي الانساني للأعلى. و أما الشؤون السياسية فانها مرتبطة بالأسفل و غايتها في المحصلة غايات الفراعنة. و لذلك في كل دولة "دينية" ستجد أنه يتم منع حتى أهل الدين أنفسهم الذين "أوحيت" اليهم حقائق من الله بأن يكشفوا عن هذه الحقائق أو حتى عن أن يعرّفوا بأنفسهم براحة و طمأنينة و بدون تقية او خشية. اللهم الا من يريد أن يجترئ أحيانا فيكون مصيره كالحلاج أو قريب منه. هذا فضلا عن غير أهل الدين. نعم قد يوجد استثناءات, استثناءات و ليس قاعدة فتامل. فالأصل في الدولة الدينية أن تكون فرعونية, و الاستثناء ان تكون عندها شئ من سعة الصدر و الرحمة و الفهم الواسع. و لذلك يتغنى الناس الى يومنا هذا باثنين أو ثلاثة دول فقط على مر 14 قرنا ! و حتى هذه الدول التي يتغنون بها اذا دققنا فيها سنجد فيها ما يسترونه او يتسترون عليه. و لكن لا بأس, فلنفرض فعلا أنها دول مثالية كاملة بقدر الوسع الانساني و الامكان الطبيعي الظرفي. فأين ثلاثة دولة أو نحو ذلك من مئات الدول و الحكام الذين تعاقبوا على ما يسمى ب "الدول الاسلامية". و ليس فقط الحكام و حواشيهم الخبثاء الملاعين, و لكن حتى الجماهير و الشعوب المتبعة لنمط الدين الفقهي و لوازمه, ألست ترى أن الجمهور أحيانا يفعل بالعلماء من الظلم ما لم تفعله الحكومات . حتى ان منع الحكومة للعلماء من كشف كل ما عندهم أحيانا يكون من رحمة الحكومة بالعلماء ! رحمة عليهم من أن يصيبهم شر من بعض العوام.

فهل هذا يعني أنه لا يمكن أن نطبّق حكم الله في الارض ؟ الجواب: الله أكبر من أن يستطيع شرذمة من الساسة أن يطبقوا حكمه في أنفسهم فضلا عن ان يطبقوه في "الارض " !! ما بال ربكم صغير الى هذه الدرجة ! أهذا حظكم من العلم بالله حتى انكم تعتقدون أن القيام ببعض الاعمال الارضية, كقطع يد و غزو بلاد (كما يحلم البعض اليوم) و منع الربا و ما شابه يعني أن حكم الله تطبق على الارض ؟! ألا ساء ما يحكمون. بل ألا ساء ما يزرون. ان الله يحكم كل شئ و لا يحتاج ان يقوم بعض الناس بتطبيق حكمه. هذا بالمعنى الحقيقي لله و ليس بالمعنى السياسي الذي يجعل الله تعالى كأنه فرعون في السماء بعث جنوده ليغزو الأرض و يضموها الى مملكته. حاشا و

كلا. ما هذه الارض التي تريدون أن تحكموها أصلا و تتموا مملكة الله بزعمكم عن طريق القيام ببضعة قوانين مظهرية (معظمها ان لم يكن كلها يمكن الطعن فيها و تبيين جهلها بل سخفها على مستوى من المستويات كالذي يحكم- باسم الله - بقطع يد السارق الذي يسرق بضعة بيضات و في نفس الوقت يأمر بالصبر على الحاكم و شيعته الذين سرقوا البلد كلها !) هذه الارض, هذا الكوكب الارضي الصغير, الذي يعتبر بالنسبة للعالم الجسماني المعروف للناس اليوم لا يساوي حتى ذرة رمل بالنسبة لكل رمل في العالم. بل هو أصغر من ذلك. فمن بين مليارات المجرات و مليارات النجوم و مليارات و الكواكب و مليارات السنين الضوئية و مليارات و مليارات و مليارات من هذا القبيل, توجد كرة أقل من أن تسمى صغيرة, و هذه الكرة – كوكب الارض- ثلثيها ماء و ثلثها بر, و هذا الثلث البري كثير منه غير مسكون من البشر أصلا, فيبقى جزء من هذا الثلث يسكنه البشر, و هؤلاء البشر أكثرهم في ضلال, فيبقى قلة "مؤمنة بدين الله و شريعته" و هذه القلة القليلة عندما تؤسس دولة (تستطيع أن تتصور حجم الدولة بالمقارنة مع بقية العالم الجسماني الفضائي المعروف- و دعك من الغير معروف) و تحكم ببعض الاحكام في هذه الدولة, فان هذا يعتبر اتمام لارادة الله من خلق الخلق, و اكمال لمملكة الله التي يغضب الله اذا لم يقوموا بها !! الله الله على هؤلاء البشر! ان كنتم أنتم صفوة الخلق و سببه فان هذا الخلق فعلا عبث في عبث. هذا اذا قارنا "الدولة الاسلامية" بالعالم الجسماني المعروف, و على فرض أن حاكم هذه الدولة الاسلامية هو نبي معصوم. فما بالك اذا قارنّا الدولة الشرعية هذه بكل العوالم المخلوقة من أعلى العرش و الدرة الى أدنى فرش و ذرة, ثم كان من يحكم في هذه الدولة هم عصابة الله أعلم بحالها وجدوا لأنفسهم جماعة الله يرحم جهلهم و فقرهم, ثم كونوا لأنفسهم شرعا استنبطوه بادمغتهم و "اجتهاداتهم" و خلطوا الحابل بالنابل, ثم أقاموا هذه الدولة التي هي سر الخلق و نهايته و مدار الوجود كله و حقيقة "و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون" نعم مع اضافة تقصير الثياب و تحريك الرأس بالصلوات خمس مرات يوميا. ما أصغر عقولكم و ما أصغر تصوركم لله تعالى. اللهم اغفر لنا و لا تؤاخذنا بما فعل و يفعل و يفكّر السفهاء منّا. ان النمل و النحل يقيمون "دولة اسلامية" احسن من كل الدول "الاسلامية" التي وجدت و ستوجد. على الاقل النمل و النحل لا يغزو بعضهم بعضا من أجل توسيع رقعة غرورهم, و لا يطغى بعضهم على بعض من أجل اشباع وهم قوتهم, و لا يكبت أحد منهم ما عنده و ما اتاه الله تعالى تقية و خوفا من بقية اخوانهم, و لا ينهب بعضهم خيرات الارض و يمنعونها شعوبهم. ليتهم يقومون بشئ من مثل دولة النحل و النمل و يكفّوا عن اطلاق الدعاوى العريضة الفارغة. و لا تعطوا مسألة الدولة أكبر من حجمها, فهي مجرد وسيلة للراحة الجسمانية, و سبب للتفرغ للأمور العقلية و الروحية و مشاركة بقية الناس هذه الثمار العالية. فان لم تكن كذلك فلا قيمة لها و لا كرامة. الانسان أعظم من كل الارض. و الله هو رب الانسان. فمن يريد أن يقيم حكم الله فعلا فليدرك حكم الله الناجز فيه مسبقا. الله يحكم العوالم كلها. و لا شريك له في الحكم. فضلا عن أن يكون له معين لاتمام هذا الحكم. و ما عمل الكائنات المخلوقات الا سباحة في بحر مملكة الله, سباحة في حدود هذه المملكة. الحدود ناجزة و مفروغ منها. الاحكام مفعّلة و مفروغ منها. و لم يبق على الانسان الا الوعي و المعرفة بها. و بناءا على المعرفة بالحدود, و التصور للمثل الأعلى الذي يسعى له الانسان, تتكون "شريعة" كل

انسان, و ان وجد مجموعة من الناس لهم مثل اعلى واحد و يريدون ان يتعاونوا في أمر معيشتهم بطريقة معينة فعندها تنشأ الجماعة او القرية او المدينة او الدولة تلقائيا. ان موسى رفض حكم فرعون لان فرعون يسوق الناس جبرا الى مثل أعلى و غاية لا يريدونها و انما يضطروا اضطرارا "على خوف من فرعون" أن يسيروا وراءه, حفظا لمعيشتهم. و يوجد من الناس من يوافق فرعون على غايته هذه و مثله الأعلى هذا, و لذلك موسى لم يقيم ثورة على فرعون أو يسعى في اغتياله و قتله, بل اكتفى بهجره و أخذ الناس الذين يؤمنون بما يؤمن به الى موضع اخر يستطيعوا أن يقيموا فيه دينهم و رؤيتهم للحياة و شرعتهم كما يحبون هم. أما "الله" فانه يحكم فرعون و موسى. و فرعون و موسى تحت حكم الله. و لا يمكن لأحد أن ينفد من أقطار السموات و الارض التي حدها الله. اللهم الا بعنصر فيهم ليس من السموات و الارض (و هذا سنذكره لاحقا ان شاء الله). نعم من باب المثل و الرمز يقال أن كذا هو دين الله و كذا هو حكم الله, و المقصود هو أن هذا دين نوراني يسعى سعي روحاني عالي, و كذلك في الاحكام التي تؤدي الى الراحة و التفرّغ الجسماني تسمى رمزا بأنها حكم الله من حيث أنها نابعة من انسان اتخذ الله كمثل أعلى له يسعى له, اي الله في المرتبة المتعالية " و ان الى ربك المنتهى ". كل من يسعى هذا السعي الروحاني الالهي و على أساسه يضع نظامه الظاهري المعيشي فهو تابع ل "حكم الله" بهذا المعنى. و أما حكم الله بمعنى أحكام الوجود و العوالم فهذه ناجزة و مفروغ منها, فلا أحد يستطيع أصلا أن يخرج على حكم الله. "طوعا و كرها" الكل عابد لله. "و له أسلم من في السموات و الارض" و "كل له قانتون". الانسان الذي يهبط في وعيه الى مستويات سفلية في العوالم, اصطلح العرفاء و الانبياء على تسميته "مخالف لحكم الله" من حيث انه لا يسعى الى كماله الممكن له, بالنسبة لرؤية العرفاء هؤلاء طبعا.

من أجل أن نجتنب هذه الرمزيات التي تؤدي الى خلل في الفهم في معظم الأحيان نقول:

حكم الله هو المتعلق بخلق الله. و حكم الانسان هو المتعلق بسعي الانسان للعرش الأعلى. فكل الاديان الموجودة و الشرائع هي شرائع انسانية . و لكن ما صنع منها بعقل مرتبط بالعرش الأعلى تعتبر شرائع الهية بهذا الاعتبار. و فقط بهذا الاعتبار. و الله تعالى هو ممد الكل "كل نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا". و انما يتشكل العطاء بحسب الوعاء القابل. فالعطاء واحد, و لذلك لا يصح للدقة المعرفية أن نسمي هذا بعطاء الله و هذا بعطاء غير الله. هذا من الشرك على التحقيق. و لذلك يسمى العطاء بحسب الوعاء القابل. فنقول دين فلان و دين علان. و لذلك تجد في القرءان تفريقا واضحا بين "الدين" و "دينكم". و من يتدبر و يوفقه الله يفقه عن الله.

و هنا ندخل الى الفهم الأول السليم لمقولة "انا الحق" و هو ليس الا : العقل المرتبط بالعرش الأعلى. لان العقل في حقيقته المتعالية هو فيض من هذا العرش العظيم الكريم. و هنا تلتقي مقولة شيخنا ابن عربي مع مقولة الحلاج. ف "أنا القرءان" هي زاوية أخرى للحقيقة التي عبّر عنها الحلاج بقوله "أنا الحق". و لكن ابن عربي اختار التعبير بالصورة و التجلي, و الحلاج اختار التعبير بالحقيقة و التعالي. و الواقع أنه لا يوجد "اختيار" و انما هو فيض عن

مقام. فالعارف يتحقق ثم يفيض فينطق. فالعارف يتحقق في العالم الأعلى ثم ينطق في العالم الأدنى. فعرفانه مقدم على كلامه. و لا يضره في الواقع عدم الكلام شيئا, و انما بعض العرفاء من شدة علوه و استيعابه لعطايا العرش المقدسة فانه لو لم يتكلم أو يعمل لانفجر قلبه من الكتم و الكبت. كما ان ضخ الماء في وعاء اذا كان الوعاء مغلقا و استمر الضخ فانه سينفجر عاجلا أن اجلا. فالعارف لا يكتب و لا يتكلم و لا يعمل أي شئ الا بحكم الضرورة المعنوية التي تدفعه لذلك. فالعارف مسيّر لا مخيّر. و هذا مقام عظيم, أي مقام التسيير, و لذلك لما سئل السيد أبو يزيد البسطامي "ماذا تريد؟ قال: أريد أن لا أريد". فان الارادة تنبع من اختيار, و الاختيار ينبع من الكثرة و تعدد الاختيارات, فمن كان في الواحد و يتصرف عن الواحد فانه لا يرى اختيارات و بالتالي لا مجال لوجود ارادة أصلا.

على احد الاعتبارات يوجد عشرة عوالم: الذات الأحدية (العالم المحيط) , الروح الأعلى (عالم الالوهية) عالم العرش العظيم (عالم الربوبية), عالم بحر الحياة (و جعلنا من الماء كل شئ حي) عالم شمس النبوة (مقام النبي الأعظم, الحقيقة المحمدية, الكلمة الجامعة, القرءان الحق), عالم الحكمة (أول مشتق من الشمس, مقام السيده فاطمة بحسب الرمز الشيعي "فاطمة بضعة منّي") , عالم الولاية (محل التصرف في العوالم, زوج الحكمة اذ لا ولاية بدون حكمة, مقام حضره الامام علي بحسب الرمز الشيعي), عالم البروج الاثني عشر (أرباب كل ما دونهم, الأئمة الاثني عشر بحسب الرمز الشيعي , و المعنى الحقيقي لرمز البروج الاثني عشر التي يستعملها المنجم و المتخرص, و البروج أبناء نكاح الحكمة و الولاية على يد شمس النبوة الذي يملك عقده هذا النكاح), عالم الملائكة الرؤساء الوكلاء (كجبرائيل و ميكائيل), عالم الملائكة الجنود (و هم الذين يملأون بقية العوالم الى أسفل سافلين و يتصرفون بأمر من فوقهم) و و هذا هو عالم السموات السبع (فيه الملائكة الرؤساء و بعض الجنود), ثم عالم الاراضين السبع(بمن فيه من بشر و بهائم و وحوش و نبات و حجر و ماء و نار و هواء و الباقي) .

فاذن من الأعلى الى الأدنى هكذا هي المراتب بهذا الاعتبار:

الذات الاحدية

الروح الأعلى

العرش العظيم

بحر الحياة

شمس النبوة

الحكمة

الولاية

البروج الاثني عشر

السموات السبع

الاراضين السبع.

تلك "عشرة كاملة".

و اما على التفصيل فان الاعتبار يختلف و السلالم و الدرجات تتعدد و تتنوع و تختلف.

الانسان هو الجامع لكل هذه المراتب. ففيه عنصر من كل هذه العوالم العشرة. و من لم تكتمل فيه هذه المراتب العشرة فانه لا يسمى انسانا أصلا. و انما يسمى بحسب أعلى مرتبة تحقق بها ووعاها و استمد منها. و لذلك عندما يقال أن بعض الناس قد مسخوا الى قردة وخنازير, او بهائم ووحوش و فئران و نحو ذلك فان المقصود هو أنهم من حيث الذات لم يرتقوا الى أعلى من ذلك. و كذلك عندما يقال أن بعض الناس أصبحوا ملائكة أو دخلوا في زمرة الملائكة او اتحدوا بجبرائيل او ميكائيل و نحو ذلك فان المقصود هو بلوغهم في وعيهم لذاتهم الى كشف هذه المرتبة المعينة.

"لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم" هو جمعيته لكل العوالم العشرة. "ثم رددناه أسفل سافلين" هو هبوطه الى أدنى عالم و هو الارض السابعة من أسفل. و السعي الانساني هو الارتقاء في سلّم التأله و العبادة و الروح و العقل حتى يحقق كل هذه المراتب. و هذا هو الاسراء و المعراج على التحقيق.

و هنا لا بد من التنبيه على حقيقة كبرى, و هي أن السموات السبع و الاراضين السبع هما مرآة و ثوب على الحقائق المقدسة السبع.

الحقائق المقدسة السبع هي: الروح الأعلى و العرش العظيم و بحر الحياة و شمس النبوة و الحكمة و الولاية و البروج الاثني عشر.

و أما الذات الاحدية فانها كما ذكرنا من قبل لا تتقيد في شئ دون شئ فانها المحيطة بالكل و الظاهرة بالكل بل هي هي الكل. فالذات الأحدية لا تتجلى في شئ بمعنى وجود حيثية للانفصال بين المتجلي و المتجلى فيه و له. فانه لا فصل على الاطلاق بينهما و بين شئ. و حتى القول بان "الذات الاحدية" شئ و "كذا و كذا" شئ هو نفسه نوع انفصال, و انما اقتضاه لأن الحديث عن الذات الاحدية انما يتم بعقل و كلام, و العقل و الكلام ينتميان على عوالم دون الذات في المرتبة, و لذلك يقع الخلط و الوهم. فخير ما يفعله العرفاء هو أن لا يتحدثوا أصلا عن الذات الاحدية اللهم الا في الضرورات و بنحو الاشارة فقط.

فالحقائق المقدسة السبعة تتجلى في السموات السبعة, و السموات السبعة تتجلى في الاراضين السبعة. و لكن التجلي في السموات غير التجلي في الاراضين. فان التجلي في السموات مناسب لطبيعتها و قابليتها, و هي لطيفة نورانية جميلة. و أما التجلي في الاراضين فانه أيضا بنحو متناسب مع طبيعة الاراضين و قابليتها, و الاراضين مظلمة قاسية فيكون التجلي فيها بنحو الجلال و القهر و العداوة. و ان كان لرشحات الجمال و النورانية مدخل و تنزل على الارض (الارض العليا فقط, اي الاولى من الاعلى, و أما ما دون ذلك فجهنم و دركاتها و العياذ بالله) و بنحو الاجمال نقول: خاصية الارض العليا هي أن يتم حكم الاجسام و أمور المعيشة بحكم الصحة و التعاون على ذلك. و ليس بنحو "لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الاموال و الاولاد" فان كل واحدة من هذه الخمسة هبوط الى أرض سفلى, و أخيرا يموت القلب كليا و يغتم و يمتلئ بالعذاب حتى يصل الى الدرك الأسفل من النار و العياذ بالله و رحمته. فانه بالصحة كغاية و التعاون يتم استعداد الأرض لتجليات السموات النورانية اللطيفة فيها. (و بالمناسبة, الشريعة الوحيدة التي تستحق أن تسمى بشريعة الله هي التي تجعل الارض على هذا النحو اللطيف , فان من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء)

فالحقائق السبعة تتجلي في السموات السبعة, و السموات السبعة تتجلى في الاراضين السبعة. و العلم و المعرفة الحقيقية بهذه الحقائق و هذه السموات و هذه الاراضين, هو العلم الأعظم من أوله الى اخره. و في هذا العلم فليتنافس المتنافسون, و لمثل هذه المعرفة فليعمل العاملون.

من أين نزل القرءان ؟ القرءان تنزّل من مقام الروح الأعلى الى العرش العظيم الى بحر الحياة الى شمس النبوة. هذا هو التنزل الأعظم له. فالقرءان هو الجامع لحقائق الروح الأعلى و العرش و الحياة. و انما استنار قمر النبي بضوء

القرءان, و بالقرءان أصبح شمسا للعوالم. و هنا فرق بين "أنا الحق" و "أنا القرءان" فان القرءان- في تنزله الأرضي- هو حبل النور في ظلمات الأرض. فالتماهي مع القرءان هو سباحة في بحور النور. و معلوم انه في العرفان لا توجد مسافة بين السالك و الغاية. بل بمجرد أن ينوي الانسان السلوك يعتبر قد دخل في الطريق و بمجرد أن يدخل في الطريق فان الله يعتبره كانه قد وصل الى الغاية طالما أنه نوى السعي الى الغاية فلا اعتبارية لأي حادث أو مصيبة خارجية تحول بينه و بين الغاية, كما في اية الهجرة عن المهاجر الى الله و رسوله ثم يدركه الموت "فقد وقع أجره على الله". فيستطيع العارف أن يقول "أنا القرءان" بمجرد أن ينوي الاحاطة العلمية بالقرءان عن طريق التزكية و الدراسة المستمرة. و هذا اعتبار في فهم صرخة ابن عربي "أنا القرءان".

و اعتبار اخر هو هذا: بما أن الانسان الكامل هو الذي يعي وجوده في كل مرتبة من مراتب الوجود و العوالم, فان "أنا" الانسان المعبرة عن هذا الوجود الذاتي, تدل على وعيه بالمحل الذي عينّ فيه هذه الأنا. فعندما يقول "أنا الله" فانه يقصد أنه عرف العنصر الالهي فيه. و عندما يقول "أنا العرش" فانه يقصد أنه عرف العنصر العرشي فيه. و هكذا. و لهذا يفرّق الشيخ ابن عربي في كتاب فصوص الحكم العظيم بين من يقول أن "الله هو المسيح" و بين من يقول "المسيح هو الله". و ينبّه على هذا الفرق حين يذكر اية "لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح" و لم يقل : لقد كفر الذين قالوا أن المسيح هو الله. ففرق كبير بين الاثنين. واحد قمة الكفر و الثاني قمة العرفان. و بسبب عدم الدقة في التعمق في كلمات الكتب الروحية وقع خلط و جرم في حق العرفاء. حتى الحلاج – رحمه الله- لم يقل "الحق أنا" و لكنه قال "أنا الحق". ابن عربي لم يقل "القرءان أنا" و لكنه قال "أنا القرءان". و لتبيين الفرق لمن لم يدركه بعد أقول: يوجد فرق بين أن تقول القطرة "أنا البحر" و بين أن تقول "البحر أنا". قول قطرة من ماء البحر " أنا البحر " هو قول صادق لان القطرة فعلا من البحر و هي تحوي في ذاتها الخصائص الذاتية للبحر. و أما لو قالت "البحر أنا" فهذا يعني أنه لا يوجد وراء هذه القطرة أي شئ غيرها, فهي البحر كله . و هذا هو الكفر, لأنه انكار لسعة البحر و عظمته و حصره و تقييده الاثم في قطرة من قطراته. و لذلك حتى يسوع الناصري لم يقل "الرب أنا" أو "النور أنا" او "الحياة أنا" أو "الطريق أنا" أو "ابن الرب أنا" , و الحلاج لم يقل مثل ذلك, ابن عربي لم يقل مثل ذلك, و لن تجد عارفا واعيا في السموات و الارض يقول شئ من هذا القبيل. بل دائما "أنا الرب, أنا ابن الرب, أنا الحياة, أنا النور, أنا الطريق , أنا الحق, أنا القرءان" و نحو ذلك. و هذا يعني تجلي هذه الحقيقة في الأنا. فالأنا وعاء و الحقيقة هي الماء. و كما أن الماء لا ينحصر في الماء الذي ملأ واديا معينا, كذلك الحقيقة لا تنحصر في وعاء معين. الأوعية تموت و الله حي لا يموت. الأوعية ضيقة و الله ذو السعة المطلقة. فاذن قول ابن عربي "أنا القرءان" يعني في هذا الاعتبار أنه قد عرف الجانب النوراني الجمعي فيه. و لذلك أيضا نجده يستعمل القران بعكس الفرقان, أي القران لمقام الجمع و الفرقان لمقام الفرق. و ان كان هذا الاستعمال في سياق اخر, و لكن له دلالة في هذا المبحث أيضا. فان فكر الشيخ مترابط.

و اعتبار ثالث هو هذا: مماهاة الذات مع الحق فيه دلالة على الانتهاء من السعي. لان الحق هو الغاية القصوى لكل ساعي. و أما القرءان- من حيثيته الكتابية- فانه يدل على استمرارية السعي لأن علوم القرءان لا تنتهي و لو جئ بكل أقلام الارض و كل البحور كمداد و كتب كل ذلك على لوح عظيم. "لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا". و الانسان خصوصا حيث انه يعيش في أرض الظلمات, فانه في سعي. ما دام الانسان يعيش في عالم ظلمة فانه في سعي, هذا معنى أن تكون انسان, أن تسعى للخروج من الظلمة حين تكون في عالم ظلمة. و الخروج قد يعني الخروج الذاتي كالانتقال من هذا العالم بالكلية و هذا لا يكون بالنسبة للانسان الا بعد موت جسمه الارضي. و لكن قد يعني أيضا انارة هذه الظلمة و انارة العين التني ينظر بها الانسان الى شؤون هذا العالم, و من أجل هذه الانارة يتنزل القرءان "لتخرج الناس من الظلمات الى النور". فهو خروج قلبي عقلي و تغيير للمحيط قدر الامكان فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها. و لذلك الانسان في عالم الظلمة هذا يحتاج الى صلة مع عوالم النور العليا, و هذا هو الدور الأعظم للقرءان الكريم. فالتبحّر في القرءان هو سباحة و سياحة في عوالم الحقائق المقدسة المتعالية. التبحر في أعماق القرءان طبعا. بل حتى مجرد وجود القرءان فيه ارتباط معنوي بتلك الحقائق المقدسة. و لهذا لا يمكن للانسان أن يفرغ من السعي الى الروح المقدس المتعالي طالما أنه في هذا العالم الارضي. و كل من يزعم بأن السعي قد انتهى أو يمكن أن ينتهي من هذه الحيثية فهو جاهل غافل و زعمه هذا عملية انتحارية لعقله الراقي. و مقولة "أنا الحق" قد توهم بانتهاء هذا السعي, و الفراغ منه اذا أخذت بهذا الاعتبار الذي ذكرناه. و لذلك فان الشيخ الأكبر قد تحرّز من هذا و قال "أنا القرءان". مذكّرا بأن القرءان هو جنة الانسان طالما أنه على الارض خصوصا. و أنا أقول: بل و بعد الموت الجسماني أيضا. فان الجنة ليست الا محلا جميلا مطمئنا لدراسة القرءان في تجليه الكامل المجرد. الجنة خلوة صوفية من الدرجة الأولى. خلوة و جلوة. الجنة مسجد يتعبد فيه الاولياء أبد الدهر. التعبد التام الذي هو استقبال تام لتجليات الحق الكبير المتعال. بكل الحيثيات و بكل العناصر التي سيكون عليها الانسان في ذلك الحين. "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين" و حاشا الأولياء أن يكون الله و نوره غايتهم في الدنيا فيتحولوا الى بهائم في الاخرة ! و قد نبّه على هذا المعنى العلماء بالله كثيرا. و الحق أنه في الاخرة سيكون الانسان انسانا كاملا, فحتى جسمه- كما هو الان و لكنه تحرّف لأسباب متعددة- جسمه سيكون روحانيا, و كل ما سيقوم به بجسمه سيكون روحاني الهي. فضلا عن باقي الأعمال. فالجانب الالهي في كل شئ سيكون متكشّفا عظيما شاملا كاملا تاما جميلا ممتعا. "و الامر يومئذ لله". و أما في هذه الحياة, في هذه المرتبة, فان هذا القرءان العربي خصوصا و كل كتب العرفان عموما, هي جنّات الانسان في الارض. و لهذا : العارف على التحقيق يعيش داخل كتب العرفان. الغوص داخل القرءان و التعمق فيه حتى يجتمع وعي الانسان كله داخله و في حروفه و كلماته و اياته و معانيه و اسراره و عقله و روحه و مبادئه هذه هي جنّات الانسان الكامل. و من هنا يقول الامام علي بن الحسين عليه السلام ما مضمونه " لو أن معي القرءان و ليس معي أحد من الكائنات من المشرق الى المغرب لما استوحشت " فمن أعطاه الله القرءان فقد أعطاه الكنز الأعظم في هذه الرتبة من الحياة, و فتح له كل مراتب الخير و

النورانية و الحياة و الروحانية في كل العوالم. و لذلك أيضا يروى عن النبي عليه السلام أنه قال ما مضمونه " من أعطاه الله القرءان ثم ظن أنه يوجد أحد من الناس قد أعطي خير مما أعطي فقد صغّر عظيما و عظّم صغيرا". فهذه الجامعية للقرءان العظيم هي من أكبر أسراره و سبب لعلو قيمته. هذا بالاضافة الى أنه في القرءان روح حي يتكلم مع قارئ القرءان. و من يستطيع أن يسمع و يلقي السمع و هو شهيد سيسمع باذن الله. بل في القرءان ألف ألف روح حي. بل في كل حرف أرواح. و في كل روح أرواح. و هكذا الى ما لا يتناهي من عطاء الله و قدرته و خزائنه التي لا تنفد و ليس لها حد, و ان الى ربك المنتهى. و أما بالنسبة لمن لا يرى لكلمات القرءان مدلولا الا المدلول الجسماني الارضي, فهذا حظه و هذا مبلغه من العلم و لن يكون القرءان له كما يكون للنبي و الأولياء و العرفاء. بل لعله في النهاية لا يجد له قيمة أصلا فيهجره- نعوذ بالله من الخذلان و الحرمان.

اللهم منّ علينا بحكم القرءان, و نور القرءان, و البسنا تاج القرءان, و أجعل ذواتنا عين القرءان. و أسمعنا صوته, و فهمنا قصده, و افتح لنا خزائنه, و علمّنا اياه على يديك, نحن منك و اليك, يا رحمن. و الحمد لله.

(عن الفص الادمي)

بسم الله الرحمن الرحيم " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها, و ما يمسك فلا مرسل له من بعده, و هو العزيز الحكيم ". الحمد لله المبدأ الأعلى, و النور الأسنى, و الصلاة و السلام على صاحب مقام فكان قاب قوسين أو أدنى, شمس النبوة و الهدى, مولانا محمد , و على آله مصابيح الدجى و نجوم السما .

ان أردنا أن نلخّص رسالة الأنبياء و الأولياء كلها في عبارة واحدة فستكون هذه العبارة هي التالي :

كشف طبقات العوالم و حقائقها, و تذكير الانسان بمقامه و رتبته في هذه العوالم, ثم دعوة الناس للعمل بمقتضى مقامهم الوجودي هذا لا غير.

طبقات العوالم من الأعلى الى الأسفل بصورة مجملة هي التالي : الذات الأحدية المتعالية عن كل تقييد, الروح الأعلى رب الناس و هو الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى, العرش , الانسان الخليفة, السماوات السبع و من فيهن, الاراضين السبع و من فيهن.

مقام الانسان هو : انه خليفة الله في السموات السبع و الاراضين السبع.

العمل الانساني له مراتب أعلاها : الذكر و الفكر و التعبير عنهما بحسب المحل المعين الذي يراد التعبير عنهما فيه.

هذه هي الحقائق التي يدور حولها كل ما كتب و يكتب في العرفان و الأديان و الطرق المتنزلة. بعضهم يشدد على جانب منها دون جانب, و بعضها يتطرف في جانب فيلغي جانب, و بعضها لا يستطيع أن يستوعب كل الجوانب لعدم اتساع وادي قلبه لأكثر مما اتسع له فان ماء المطر يسيل في الوادي بقدر سعة الوادي لا بقدر كمية ماء المطر. و قلة من العرفاء من انكشفت له العوالم كلها بصورة كاملة, و من هؤلاء القلة هو الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي- رضوان الله عليه. و هو خاتم الأولياء في هذه الأمة المحمدية. و ان أردنا أن نسمي أكمل عشرة علماء في هذه الأمة فان سيدنا ابن عربي يعتبر الأول فيهم, و لهذا سمّي بالشيخ الأكبر. و ليس من العجب بعد ذلك أن نجد حتى غير المسلمين من الأمة يتعلق به و يأخذ منه و يؤمن بعرفانه و يدرس كتبه و تؤسس الجمعيات باسمه و تنشر الكتب و المجلات و الدراسات حول جانب من جانب من جوانب محيط علمه و نوره. و رائحة الوحي القرءاني تفوح من أعماق كتبه العظيمة, لا سيما الفتوحات المكية و فصوص الحكم. و بركة الله مستقرة في بيوت كتبه. فقد جمع الله له بين علو المعاني و عمقها و جمال المباني و بسطها بما لا نجد له مثيلا عند غيره من العرفاء و العلماء. و لهذه الأسباب و لغيرها نريد أن ندرس مقام الانسانية في ضوء كلمات شيخنا ابن عربي- رحمه الله. و بالخصوص

سيكون موضوع الدراسة هو الفص الآدمي و هو الفص الأول من كتاب فصوص الحكم, الذي يعتبر دستور العرفاء من يوم سلّمه رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم الى شيخنا ابن عربي في المبشرة التي أريها في العشر الآخر من محرم سنة سبع و عشرون و ستمائة بمحروسة دمشق فقال الرسول له " هذا كتاب فصوص الحكم خذه و اخرج به الى الناس ينتفعون به " و دوّنه الشيخ و نشره. و قد أقبل العرفاء و أهل التحقيق الذين وفقهم الله تعالى لنيل المطالب العليا على هذا الكتاب الشريف, فدرسوه و درّسوه و كتبوا عليه الشروحات و التعليقات و اقيمت حوله الندوات و الدراسات بمختلف اللغات من ذلك اليوم الى يومنا هذا. و قد بلغت الشروحات و التعليقات عليه في الكتب التي خصصت للشرح و التعليق عليه- دون المقالات و الرسائل و نحو ذلك- أكثر من مئة و ثلاثين, و بعضهم أوصلها الى مئة و خمسين, و بعضهم يقول أكثر من ذلك. طبعا هذا بدون أن يحسبوا كم عدد العلماء الذين استفادوا منه مباشرة أو غير مباشرة. و قد كان بعض العرفاء يحفظ كتاب فصوص الحكم كله عن ظهر قلب. و ما أسعد حظ أمثال هؤلاء الذين وفقهم الله تعالى للاتصال و الاستمداد من هذا الكتاب الشريف.

و لكن مع الأسف- أسف على المحروم طبعا- فقد وجد بعض طلاب العلم, خصوصا من طلاب أدنى درجة من درجات العلم النبوي و هو علم الحلال و الحرام البدني, اذ للعلم درجات بحسب متعلق العلم و ما تعلق بأسفل سافلين و هو طبقة البدن الكثيف فهو أسفل درجة من العلم و ان كان علما و العلم نور و لكن الأمر درجات و خير الناس من جمع الكل و أعطى كل ذي حق حقه و لم يغلو و لم يفرط - هؤلاء الطلاب قد شنّوا حملة انتقاص كبيرة على الشيخ ابن عربي, و لكن كانوا في الأزمان الغابرة قلة قليلة جدا, فقد أقر بالمقام الشامخ لابن عربي جمهور العلماء و المحققين حتى من أكثر من مذهبو فرقه, و القلة القليلة التي تجرأت بغير وعي سليم على انتقاص الشيخ بل تكفيره و العياذ بالله هي نفسها كانت في الغالب مطعون فيها بل و قد تم تكفيرها أحيانا من علماء كبار من نفس فرقتهم. و لا يخفى أن أبرز هؤلاء هو الشيخ ابن تيمية- عفا الله عنا و عنه. و أخذ تلاميذه عنه ذلك. مع العلم أن ابن عربي كان معظما من مشايخ زمنه و من جاء بعدهم باستثناء أمثال ابن تيمية و من شايعه و شابهه, و ابن تيمية من الناحية الاخرى قد أودعه علماء الشرع السني سبع مرات في السجن بسبب أرائه الدينية حتى توفي في السجن, و قد أطلق دعوى تكفيره مطلقا بعض كبار العلماء و الفقهاء (و هي دعوى نرفضها و الشيخ ابن عربي بحسب مبانيه في مثل هذه المسائل يرفضها) و أطلق دعوى انه منافق بعض الكبار أيضا, و شنّع عليه تشنيعا شديدا جدا غير واحد من العلماء و الفقهاء- و الذين يحترمهم الى اليوم أتباع ابن تيمية و هذا من الامور العجيبة, كالسبكي و الهيثمي. فالحاصل أنه ليس لمثل ابن تيمية أن يحكم في مثل ابن عربي, و ان حكم فيه فان الذين يدافعون عن حريم الشيخ الأكبر سوف يردّون و قد ردّوا على ذلك باظهار عورات ابن تيمية و سقطاته و أقوال العلماء فيه. و هذا النوع من الخصومة ينبغي أن لا ندخل فيه و يا ليت أن كل واحد قد التزم حده و رتبته من البداية , فاللهم اغفر لنا أجمعين.

الا ان انتقاص و تكفير الشيخ الأكبر من قبل هذه القلة قد أثّر تأثيرا كبيرا على ميراث ابن عربي. فبين تحريم كتب ابن عربي و تحليلها أصبح جمهور العلماء يعتبرونها من الشبهات التي من الأسلم عدم قراءتها و نشرها خصوصا

بالنسبة للمبتدئين. فيوجد ثلاثة اراء لعلماء الشرع في كتب ابن عربي: الاول تحريمها بسبب اعتبارها من كتب الكفر و الزندقة و خصوصا فصوص الحكم. الثاني تحليلها مطلقا مع النصح الطبيعي بأن تقرأ على يد شيخ عارف أو أن يقرأها من تمكن في العلوم العرفانية و العقلية و الشرعية, الثالث هو اعتبارها كتب علم و عرفان الا أنه من الأسلم أن لا يقربها المسلم. و أما في يومنا هذا, فانه بعد ان أصبح أتباع مدرسة ابن تيمية- بفضل أموال البترول خصوصا و ما يفتح المال من أبواب- نشطاء في هذه المئة سنة, و بسبب انتكاس وضع الأمة الاسلامية عموما و التي بدأت من حيث الظاهر بهزيمة جيوش الدولة العثمانية من نحو ثلاثة قرون و بدأت رسميا من زوال الدولة العثمانية, و بدأت فعليا من الاستعمار الفرنسي و الانجليزي بعد ما يسمى بالحرب العالمية و التي تسببت في تقسيم الدول التي كانت سابقا تحت ظل الدولة العثمانية, و تحققت نهائيا بالاستعمار الثقافي الغربي لقلوب الكثير من أبناء المنطقة, فان كل هذه الاسباب مجتمعة و من حيثيات مختلفة أدت الى اضعاف قيمة العرفان عموما و قيمة ابن عربي خصوصا الذي يعتبر في الوعي الجمعي أنه : عارف متطرف. فالمسألة ليست متعلقة فقط بالتصوف, اذ الامام ابوحامد الغزالي مثلا له شعبية كبيرة في الوعي الجمعي للأمة. و انما الأمر متعلق بالعرفان, الذي هو الجانب الأعلى المعرفي للتصوف. فالعرفان هو عقل التصوف, ان صح التعبير, و ليس التصوف الحقيقي الا الثمرة التلقائية الناتجة بدون تكلف عن العرفان. فالعرفان هو علم التصوف, و التصوف هو شريعة العرفان.

أما تأثير مدرسة ابن تيمية, فان هؤلاء استعملوا وسائل الاعلام و نشر الكتب و تأليف الكتب الجديدة في ادانة التصوف عموما و العرفان خصوصا و ابن عربي بالأخص. فتم احياء الاراء التكفيرية السابقة و تم تسويقها على نطاق واسع. حتى أصبح ذكر اسم ابن عربي في بعض الأماكن والبلدان كأنه مرادف لكلمات الزندقة و الالحاد و الكفر- حاشاه. و من نافلة القول ان كتب ابن عربي في البلدان التي يسود فيها فكر ابن تيمية بصيغته التي أحياها ابن عبدالوهاب و أتباعه من بعد الى يومنا هذا, هي أندر من الكبريت الأحمر, بل قد تجد الكبريت الأحمر و لا تجد فصوص الحكم مثلا. و قد دعوت الله تعالى أن ييسر لي نسخة من الفتوحات المكية, فاتفق لي بفضله تعالى أن قابلت رجل يبيع الكتب في جدة, حيث أسكن حاليا, و أخبرني انه عنده نسخة من الفتوحات المكية و رضي بأن يبيعني اياها, و لو أردت أن أبتاع المخدرات و المسكرات لكان أيسر بكثير من الحصول على الفصوص او الفتوحات ! فالله المستعان. و قد نشأ بسبب رد الفعل على مدرسة ابن عبدالوهاب تيار من العلماء و الفقهاء الذين يؤمنون بالتصوف و لكنهم لا يريدون أن يظهروا أنهم أنصار لعلوم ابن عربي و فكره و ما قدّمه من معرفة, فهؤلاء يقولون مثلا : خذوا من ابن عربي محاسبته لنفسه و دعوا له احواله و مواجده. الا أن ما يقوم به أصحاب هذا التوجه يدل على عدم وعي حقيقي بميراث ابن عربي, فابن عربي لم يكن من أصحاب المواجيد و الاحوال بالمعنى الشائع, فعرفانه متزن ملئ بالتحقيق, و ان كان يظهر أحيانا وجدا الا أنه دائما يكون وجده محاطا بالعلم و الهدوء و البصيرة. و القيمة الكبرى لابن عربي هي في ما يسميه هؤلاء "مواجده و أحواله" و ليس في الامور المتعلقة بظاهر التصوف فقط, بل ان للشيخ مقولات تظهر أحيانا أنه يذم طوائف من الصوفية. على أية حال, فان فعل الوهابية قد أدّى الى رد فعل من المتصوفة و هي أن يسلّموا بمقام ابن عربي عموما ثم يقبلوا بافكاره أحيانا و لكن فقط الافكار

المتعلقة بظاهر التصوف العملي السفلي, و هذا يعني قمع لعرفان ابن عربي الذي هو تاج ولايته و روح امه نبينا محمد عليه الصلاه و السلام.

أما تأثير الهزائم السياسية و الاقتصادية و الاستعمار, فقد أدى كل هذا الى أن جمهور رؤوس الأمة من العلماء و الفقهاء و الكتّاب أصبحوا يريدون أن ينالوا ما يسمونه "السيادة" في الارض. فأصبح التفكير منصبا على محاربة العدو بسلاحه, و العدو في هذه الحالة هو العالم الغربي- الاوروبي الامريكي- و سلاحه الظاهري حسب ما يفهمه هذا الجمهور المذكور هو: القوة العسكرية و المالية و العلمية الطبيعية المظهرية. و بالتالي, لا يوجد عندهم وقت و لا رغبة في أن يبحثوا في العرفان و الفلسفة العالية و ما اشبه, بل ان هذه الأمور أصبحت عند بعضهم محط للسخرية و اعتبارها سببا في "تخلف الأمة". طبعا معيار "التقدم" عندهم هو النموذج الاوروبي و الامريكي, و لذلك يكون "التخلف" عندهم هو كل ما يحول دون ذلك "التقدم". فان كان في العصور السابقة حيث "السيادة" للدول الاسلامية, و مع ذلك كان العرفان- و عرفان ابن عربي خصوصا- يعتبر امتيازا لا يناله الا النخبة, بل نخبة النخبة. فما الظن اليوم و الدول "الاسلامية" (على فرض وجود شئ من هذا القبيل بالمعنى الذي كان عليه في السابق) تعتبر دول "متخلفة" ؟! طبعا ليست المصيبة أن يسمينا الغرب "دول متخلفة" بحسب معاييرهم و منظومة قيمهم, المصيبة هي ان نؤمن نحن بما يقوله الغرب عنا. و المصيبة قد وقعت فعلا. و ليس اليوم- بل اليوم الوضع في تحسن نسبي- و لكن قبل نحو قرن او أقل. و ايمان الشعوب بانها متخلفة أدّى الى ايمانها بوجوب وجود منقذ لها لتسلم لها قيادها, مهما كلف الثمن. و ما أعظم الثمن الذي دفعناه ! كان أصبحنا نؤمن بأي طاغية و حزبه العسكري مثلا, فقط لانه وعدنا باننا سنصبح من "الدول المتقدمة". و التقدم الوحيد الذي نلناه هو التقدم في الهبوط الى أسفل سافلين.

و نشأت عندنا- و هي مستمرة الى حد ما اليوم- الظاهرة التي أسميها " البغل العربي ". البغل لا هو حصان و لا هو حمار, و لكنه هجين, هجين قبيح عقيم, يعمل كثيرا ثم يموت بدون أن ينتج ذاته. و البغل العربي هو فئة كبيرة من الناس, أصبحت لا هي تمارس ذاتها وحياتها على أنهم عرب أو مسلمون, و لا تستطيع بسبب جهلها و سطحيتها- كالعادة- أن تمارس حياتها كالشعوب الاوروبية و الامريكية عموما. فهم نصف عربي و نصف غربي, مع العلم أنهم أخذوا أسوأ ما في العرب و أسوأ ما في الغرب, و أنتجوا لنا بغلا من نوع ردئ جدا. العوام سطحيون دائما, سطحيون حين يتعاملون مع الدين و معارفه, و سطحيون حتى حينما تعاملوا مع دين الغرب و ثقافته. و أول دليل على سطحيتهم في تعاملهم مع "الغرب" هو أنهم يظنون أن "الغرب" هو جماعة واحدة لها منظومة قيم واحدة متشابهة اتفقوا عليها و لا نزاع عندهم عليها, و أن هذه المنظومة مؤلفة من رفض روحانيات الدين و الايمان بالقيمة المطلقة للبشر و جعل كسب النقود و اشباع الغرائز البشرية الوحشية هو هدف الحياة الأسمى و لا شئ وراء ذلك. لنصحح هذه المعلومات بل المغالطات بشئ من الاختصار :

أولا, لا يوجد "غرب". يوجد شعوب متعددة جدا في أوروبا و أمريكا الشمالية و امريكا الجنوبية. وفي معظم هذه الشعوب و البلدان يوجد تعدد واسع جدا في القيم و الرؤى تصل في أحيان كثيرة الى درجة من الاختلاف تشمل النقيض و نقيضه وما بينهما. و لا يوجد "اجماع" عندهم على شئ من هذا كله. بل الى يومنا هذا يوجد نزاعات على مسائل "دينية" و "فكرية" و "علمية" و "ذوقية" و "قانونية" و قل ما شئت. بل في بلد مثل امريكا, يوجد توجهات لفائت عريضة من الشعب اذا عرضناها على من يسمون "متطرفين" عندنا فانهم سيرفضوها لاعتبارهم اياها تطرف زائد عن الحد ! بل الغريب أن الدراسات الروحية و العرفانية و التقليدية في انتشار واسع في اوروبا و أمريكا, و قد ظلت ترتفع في القرن الفائت خصوصا و بلغت درجة عالية في يومنا هذا. و هذه دراسات و كتب و نظريات عظيمة فعلا. بل ان اعتبار الروح و الروحانية جانب مهم و أساسي في الحياة البشرية أصبح له أنصار من فئات متعددة في هذه الشعوب, و خصوصا الشعوب الأكثر "تقدما ". و ليت "المتخلفون" عندنا يطلعوا على توجهات هذه الفئات التي تعيش في أوروبا و أمريكا مثلا. فاعتبار "غرب" و "مادية" كلمات مترادفة يدل على جهل من نوع غريب.

ثانيا, يوجد ثلاث قوى يريد "البغل العربي" أن يكسبها, حسب ما يدعي على الاقل. القوة العسكرية, القوة المالية, القوة العلمية الطبيعية. و يفترض البغل العربي أن نبذ الدين عموما و العرفان و التصوف خصوصا هو سبب ضروري لكسب هذه القوى. و الجواب عن ذلك باختصار:

أما القوة العسكرية. فمن الناحية التاريخية : الى يوم هزيمة الجيوش العثمانية بعد عصر السلطان سليمان القانوني- رحمه الله- و بداية الانحدار, فان الجيوش "الاسلامية" كانت هي أقوى جيوش تدب على وجه الارض على العموم. باستثناء الجيش المغولي في فترة معينة و الذي أصبح ضمن الجيوش الاسلامية لاحقا و كان من أهم أسباب قوته الزائدة هو الضعف الزائد للدول الاسلامية لأسباب يذكرها أهل التاريخ و لسنا بصددها هنا. فالدين لم يكن يوما سبب لضعف القوة العسكرية للمسلمين. بل ان العكس تماما هو الحق, أليس اليوم يتهم أعداء الاسلام الاسلام بانه دين حرب و وحشية و همه الوحيد هو تكوين امبراطورية تحكم العالم؟ فسبحان الله. و لعل الجيش العثماني هو أقوى جيش اسلامي في تاريخ الأمة او لا أقل من أقوى الجيوش. و من المعلوم أن العثمانيين كانوا صوفية, بل كانت الطريقة البكتاشية هي الطريقة التي عليها عامة الجيش- و الانكشاريين خصوصا- و نخب الدولة, و البكتاشية تعتبر عند البعض طريقة صوفية مغالية في التصوف ! و لم يؤثر هذا على قوة الجيش, بل ان هذا أعطاه قوة كبيرة على الانضباط و الالتزام . و اصبح "هجوم التركي" مثل شائع يستعمله الشعراء كرمز على القوه و الجساره و الاقدام في الحرب بلا اي تهيب.

و من الناحية الحالية, فان الجيش الصهيوني مثلا يعتبر من أقوى الجيوش. و لا يخفى التوجه الديني الذي يقف وراء هذا الجيش بل الدولة عموما, و ان كان يوجد صهاينة ملاحدة, الا أن الرؤية الصهيونية تعتبر دينا بحد ذاتها

لمن يفهم معنى الدين الأوسع- الذي هو رؤية للوجود و عمل في اطار هذه الرؤية. و الجيش الأمريكي أيضا فيه توجهات مسيحية لا تخفى .

و بغض النظر عن الأمثلة, فان القوة العسكرية تعني أساسا ثلاثة أمور: جنود, انضباط, أسلحة. أما الجنود فيا كثر عدد العرب و المسلمين. و أما الانضباط, فيبنى على رؤية و هدف و في الاسلام ما يكفي من حيث الرؤية و الهدف الذي يجعل الصبي صاحب الخمسة عشر عاما يمشي على الالغام ليفجر نفسه و يعطي طريقا آمنا للجنود خلفه (كما حدث في الحرب الايرانية- العراقية مثلا) . و أما السلاح فهذا يرجع الى القوة المالية. و الأهم من كل هذا, هو ان توجد حكومات ترغب و تقدر على أن تبني جيشا قويا. و لا يخفى حال حكومات العرب و المسلمين عموما اليوم. فلا تلوموا الاسلام, و لا تلوموا أيضا المسلمين, بل اللوم يأتي أساسا على بعض الحكومات الخاضعة لأوامر هذه الدولة الغربية أو تلك, و لا تستطيع أصلا أن تبني جيشا قويا حتى لا تستقل فعليا كما هي مستقلة اسميا و صوريا .

و أما الناحية المالية, فان عدد أفراد الأمة الاسلامية اليوم نحو مليار و ثمانمائة مليون, لنخرج منهم ثلاثمائة مليون حسبوا في الاسلام و هم ليسوا منه و لا يرغبوا ان يكونوا منه بل و يصرحوا أنهم ليسوا منه . فيبقى مليار و خمسمائة مليون على الاقل يعتبرون أنفسهم من الامة الاسلامية. و الدول التي تصنف على أنها "اسلامية" تمتد من أقصا المغرب الى أقصا المشرق. و نحن في كل القارات. و منّا من يعيشون في مراكز القوة المالية و العسكرية و العلمية الطبيعية في العالم. و المنتجات التي تصدرها الدول الاسلامية و القدرة الكامنة عندها يمكن ان تكفي ليس فقط لكل أهل هذه الأرض بل ثلاثة كواكب أرضية أخرى. و لكن مرة أخرى, لا علاقة لا للأسلام و لا لكثير من المسلمين بهذا. فان دول كثيرة من الدول "الاسلامية" أراد أرباب القوة الظاهرة في الارض أن تكون أسواقا لاستهلاك بضائع الدول الغربية. و أموال كثير ممن ينتمون ظاهرا او باطنا للأمة الاسلامية تنفق في البلاد الغربية و تودع في بنوكهم. و ما يبقى من أموال في الدول الاسلامية و العربية يتم توزيعه بحيث ينال القلة نصيب الأسد و البقية و الكثرة تنال نصيبا يكفيها للعيش برفاهية في حد أسرها الصغيرة أو بحيث تعاني لتعيش. و فقط لأذكر سابقة واحدة لها قيمتها, فان السلطان عبد الحميد العثماني لما أراد أن يبني قطار الحجاز الشهير قبل نحو مئة سنة, بناه ليس فقط بماله الخاص او مال الدولة, بل ساهم في بنائه جمع كبير من أفراد الأمة الاسلامية الذين تبرعوا لاقامة هذا المشروع. تصور أن المليار و نصف مسلم اليوم أرادوا أن يبنوا شيئا لصالح الأمة ككل, هل سيكون من الصعب أن يتبرع كل فرد من الأمة بعشرة دولارات مثلا كمعدل متوسط ؟ عشرة دولارات ضرب مليار و نصف, هذه خمسة عشر مليار دولار يمكن جمعها بدون مبالغة في أقل من أسبوع, ان وجد فعلا مشروع للأمة و تؤمن به الأمة. فما بالك و أن الكثير من أثرى أثرياء العالم هم ممن ينتسب الى الأمة. الثروات الطبيعية و الحيوانية الموجودة في البلاد العربية و الاسلامية ثروات عظيمة جدا, بالرغم من كل الاجحاف و القمع الذي يمارس ضدها او ضد بعضها. فنحن

المسلمون لا نشتكي اليوم من قلة موارد طبيعية و لا موارد حيوانية, و لا موارد بشرية. هذه كلها موجودة. و امكانية جمع الاموال لغاية اسلامية موجودة و ممكنة (التبرعات للفلسطينيين كمثال. مع تذكر النهب الذي وقع على بعضها ان لم يكن معظمها). و الرغبة في قوةالأمة موجودة. فحالتنا اليوم تشبه الى حد ما قصة ذو القرنين في القرءان. فالقوم الذين طلبوا من ذي القرنين ان يبني لهم السد, كانوا يملكون المال و العمال و الرغبة و الفهم و لكنهم احتاجوا الى قيادة واعية قوية و رؤيه متوحده في المجمل.

و أما من الناحية العلمية الطبيعية, فانه من غير العدل أن ينسب حب الجهل الى دين قرآنه مكون من نحو ستة الاف اية يتم ذكر العلم و الفكر و الدراسة و البصر و الاعتبار و الانتفاع بموارد الارض و نحو ذلك أكثر من أربعة الاف مرة ! كيف و عالم الافق الأدنى يعتبر كتاب من كتب الله و دراسته تعتبر على حد دراسة القرءان الذي نزل على الرسول محمد عليه السلام . لا يوجد شئ يمنع من دراسة المسلم لما يسمونه "الطبيعة" بل كل ما عندنا يدفع الى هذه الدراسة, مع ضرورة فهم الأولويات و اعطاء كل شئ حقه. نعم لا أظن انه من الممكن أن يوجد مسلم من هذه الامة ينذر كل حياته و وقته لدراسة جانب من جوانب "الطبيعة" مع اغفال اي اهتمام معرفي و علمي اخر, كالعلم بالله تعالى و الأسرار الحقيقية للوجود. نعم هذه الدنيا "متاع" و الاخرة هي "دار القرار", و من العقل البديهي أن تكون الاولوية لما هو خالد و غاية على ما هو مؤقت ووسيلة. و لكن هذا لا يعني اضعاف دراسة الطبيعة الدنيا و انما يعني اعطاءها حقها بحسب قيمتها الفعلية التي قررها الله و الأنبياء و العرفاء. بل انه في حالات كثيرة و الى زمن قريب بل و الى زمننا هذا, فانه من علماء الطبيعة من كانوا أيضا علماء بالله الى حد او اخر و أصحاب اهتمام بالروحانيات العالية. بل ان من علماء الطبيعة- الغرب-من كان له اهتمامات روحانية يعتبرها بعض الروحانيين أنها روحانية متطرفة ! كاسحاق نيوتن مثلا. و الذي يقال انه أعظم عقل علمي طبيعي او من أعظمها. نعم, للانصاف, فانه ليس من الغريب أن نجد فئات من المسلمين تزهد بالكلية في العلوم الطبيعية بسبب غلوها في فهم معنى الحياة الاخرة, و الخوف الشديد من العذاب الممكن و الرغبة الشديدة في النعيم المقيم. و لكن هذه الحالات المغالية لن يتم معالجتها بالالحاد بل بالعرفان. و عرفان ابن عربي بالاخص، و من يسبح و يغوص في بحر عرفان ابن عربي يدرك هذا المعنى. فليتأمل هذا.

فاذن: ان لم يكن العرفان هو الوسيلة العظمى لرفعة الامة الاسلامية, فانه لا توجد وسيلة أخرى يمكنها أن تفعل ذلك. مع تذكر ان العرفان غايه في ذاته ، و انما تفيض فوائده الاخرى تلقائيا و عفويا منه.

و من "مناقب" البغل العربي, أنه لا يفقه الأسس و المبادئ التي يقوم عليها المنهج المسمى بالمادي في النظر في الشؤون الطبيعية و الانسانية. فهو ينظر الى نتاج المفكرين الماديين اصحاب المنهج الذي سموه "العلمي" بالصيغة

الاحتكارية الحصرية, و يعتبر أن نتائجه "موضوعية" بحتة. و هذه من أكبر مشاكل البغل و أكبر مشاكل المنهج المادي عموما. و هذه النقطة تحتاج الى دراسة خاصة, و قد أقيمت حولها فعلا دراسات كثيرة فنكتفي بالاحالة على أهم المؤلفين فيها و ندع شئ من تفصيلها الى مباحث لاحقة ان شاء الله في الكتاب. فمن أهم من بحث في هذه النقطة, أي الأسس الفعلية و الفلسفة وراء "المنهج العلمي" كما يسمونه, و نقدها و قارن بينها و بين أسس المنهج العرفاني الحقيقي. نذكر ثلاثة مؤلفين و الثلاثة مسلمين من أعظم العقول التي رأيتها في هذا القرن بل و من أعظم العقول الانسانية في هذا المجال عموما :

رينيه غينون (توفي 1951 م) , المسمى بعد اسلامه بالشيخ عبد الواحد يحيى. و له مؤلفات كثيرة أنصح بدراستها بعمق كلها, و ترجمتها كلها الى العربية في أسرع وقت ممكن و نشرها على أوسع نطاق.

فريثجوف شوون (توفي 1998 م) , المسمى بعد اسلامه بالشيخ عيسى . و كذلك له مؤلفات كثيرة أنصح بدراستها بعمق كلها, و ترجمتها كلها الى العربية في أسرع وقت ممكن و نشرها على أوسع نطاق.

السيد حسين نصر (لا يزال حيا-اليوم ٢٠١٤م- أطال الله في عمره) . كذلك له مؤلفات كثيرة أنصح بدراستها كلها بعمق, و ترجمتها الى العربية في أسرع وقت ممكن و نشرها على أوسع نطاق. و خصوصا كتابه: العلم و المقدس. و هو تاج كتبه كلها.

بعض كتب هؤلاء الثلاثة قد تمت ترجمتها و لكنها غير منشورة على نطاق واسع, و البعض الاخر لم يترجم. و لو يتم انشاء جمعية في العالم العربي الاسلامي للاهتمام بكتب هؤلاء و من تبع مدرستهم, و ترجمتها و نشرها, فانه خير عظيم و من اهم الوسائل لنشر روح المعرفة الحقة في الأمة. و هذا لا يعني طبعا أن كل صغيرة ذكروها تعتبر حقا مقدسا, و هذا بديهي. و لكن في هذه الكتب من العلم و المعرفة و التحقيق في القضايا الشئ الكثير جدا, و فيها وعي عميق بالعالم المعاصر و أسسه و نقدها و تبيان قواعدها و فلسفتها, و تبيان للحقائق الدينية و العرفانية و كشف أسس التقاليد الدينية لشتى الديانات المعتبرة و ابراز العوامل المشتركة و ابراز عوامل الاختلاف و تبيان سبب هذا الاختلاف و جذوره و مبادئه و نطاقه و لوازمه.

و ما أؤمن به و أدعو اليه بخصوص الشيخ الأكبر هو التالي : نشر كتبه, خصوصا الفتوحات و الفصوص, على أوسع نطاق. و اقامة مجالس لدراستها في شتى أنحاء الأمة. و من أوتي الفهم سيفهم. و مجرد قراءة كتب العرفاء يورث نورا و روحانية, حتى أحيانا و لو لم يعقل الشخص كل ما يقرأ. و هذه خاصية أبرز من نجدها عندهم هو ابن عربي, في فصوص الحكم.

قيمة الانسان الحقيقية و مرتبته في الوجود, و مقتضيات هذه المرتبة. هذه هي أهم ثلاثة مسائل ينبغي على كل انسان ان يعرفها و يتذكرها. و هي كعبة العلوم الدينية . و الفص الآدمي الذي هو الفص الأول من فصوص الحكم هو القسم الذي خصصه الشيخ لتبيان أهم ما في هذه المسائل. و باقي الفصوص أيضا تتحدث عن ذلك و لكنها أشد تركيزا في هذا الفص الآدمي, و لذلك اخترناها كبداية و مقدمة.

هذه الدراسة لن تكون بطريقة اكاديمية, و لن تكون بحيث نتحدث عن معاني الكلمات و ما قاله الشراح الاخرون . بل سنكتب أولا الفص الآدمي كله, و سنقسمه الى مقاطع مرقمة, ثم سنعقد فصلا لكل مقطع, و نرى ما يفتح علينا فيه, قد نكتب في مواضيع يظهر أنها استطراد و لكنها ليست كذلك, اذ سنتخذ المقطع كنقطة انطلاق لمباحث متعلقة به بنحو مباشر او غير مباشر بالقدر الذي يفتح لنا و نساق اليه و نرى أنه من الأهمية ذكره. فستكون الدراسة حرة و لكنها تدور في فلك النص الأكبري على صاحبه الرضوان الالهي.

نسأل الله تعالى أن يفتح لنا بالحق و هو خير الفاتحين, و أن يعصمنا من الزلل فانه ولي كريم, و أن ييسر لنا فهم مقاصد الشيخ و تفهيمها للقارئ انه على كل شئ قدير.

هذا ما عندنا من التمهيد..فتعالوا ننظر ..

(فص حكمة الهية في كلمة آدمية)

يوجد هنا أمور, منها : رمزية الخاتم و الفص, و مستويات الوجود, و نظرية في تأويل الكتب المقدسة, و نظرية في معنى الوجود الانساني, و نظرية في حد الوجود الالهي.

ـــ رمزية الخاتم و الفص.

كما ينص الشيخ نفسه في نهاية الفصل الأول من هذا الكتاب, " فص كل حكمة : الكلمة التي نسبت اليها" . فالحكمة هي جسم الخاتم, الذي له صورة الدائرة المحيطة بالاصبع, و الكلمة هي الجزء البارز من الخاتم و الذي يعطيه صورة متميزة عن بقية الخواتم. و جسم الخاتم بدون فصه ناقص من حيث الكمال, كما أن الفص بدون الجسم لا محل له و بالتالي لا قيمة فعلية له, فالعلاقة بين الجسم و الفص تكاملية, و الفص يستند في ثبوته على الجسم.

في هذا المجال, فان الشيخ جعل الخاتم هو الحكمة, و الفص هو الكلمة. فهذا القدر من الرمزية ثابت على طول الكتاب كله. و لكن التغير هو في الاسم الالهي المنسوب للحكمة, فعندما يتغير الاسم يتغير معه الاسم الانساني النوراني المنسوب الى الكلمة. فمثلا, " حكمة روحية في كلمة يعقوبية " و "حكمة نورية في كلمة يوسفية " و هكذا. فاذا تغيّر الاسم الالهي تغيّر الاسم الانساني أي الصورة الانسانية التي يتجلى فيها هذا الاسم الالهي المعينّ.

و صورة الدائرة المحيطة بالاصبع ترمز الى أن الحقيقة الالهية محيطة بالخلق كله. فالخاتم و فصّه هما زينة الاصبع العاري, و الحقيقة الالهية و الانسانية نور عوالم الخلق و كماله, و كما ان الخاتم شئ و الاصبع شئ اخر, كذلك الحق تبارك و تعالى و خليفته الذي هو الانسان ذات من حيث المبدأ مفارقة للخلق, فكما يقرر الشيخ في موضعه " لا مناسبة بين الحق و الخلق " على اعتبار معين طبعا. فجوهر الانسان هو جوهر غير مخلوق, هو سر مستقر في ذات الحق تعالى, و هو الذي أشار اليه القرءان بقوله " و نفخت فيه من روحي ". و لذلك الانسان جوهريا غريب عن العوالم كلها, و لا يجد استقراره الا في ذات الحق في أعلى مرتبة من الهوية المتعالية لله تبارك اسمه. الأصل في الانسان الغربة, و انما تتحول عوالم الخلق له الى منزل عندما يعي سر وجوده و خلافته في الأرض, و الخلق كله أرض. و انما سميت "منزل" للانسان لانها فعلا "منزل" أي نزل اليها من رتبته المتعالية في ذات الحق تبارك و تعالى. و هو ما أشار اليه القرءان بهبوط ادم من الجنة, على اعتبار. فالجنة بهذا الاعتبار هي ذات الحق. و لذلك يروى عن النبي الأكرم عليه السلام انه قال "اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا...مجالس الذكر". لانه في ذكر الله, و ذكر الله فقط, يعود وعي الانسان الى وطنه الحق في ذات الحق. و من هنا ندرك من هم الشياطين : هم الذين يريدون أن يوهموا الناس بأن لهم موطنا في غير ذات الله , و أن لهم كمالا في غير خلافة الله, و أن لهم سعادة

في غير ذكر الله, و أن لهم كرامة في غير العمل بشريعة الله. من استوفى هذه الأركان الأربعة للشيطنة فهو الشيطان الأكبر قلبا و قالبا, و من أخذ بركن منها فقد أخذ حظه من الشيطنة بقدر ما أخذ.

و كما ان الفص لا يقوم كماله الا باستناده الى جسم الخاتم, كذلك الانسان لا يكون انسانا الا بكونه تجليا لاسم من أسماء الله الحسنى, أي خليفة. و كما ان الفص لا قيمة فعلية له الا بان يكون موضوعا على الخاتم, كذلك الانسان لا تكون له قيمة فعلية الا بان يكون مظهرا للحق. " و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون" أي ليعدّوا أنفسهم لتجلياتي فيهم و بهم كما تعدّ الطرق المعبّدة ليسير عليها الركبان بارتياح.

و يوجد اعتبار اخر لمعنى الفص و الخاتم. و هو الذي نص عليه الشيخ فقال " فتم العالم بوجوده(اي الانسان) فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم , الذي هو محل النقش و العلامة التي بها يختم الملك على خزانته, و سمّاه خليفة من أجل هذا " ففي هذا الاعتبار, يكون الاصبع رمز الى الحقيقة الالهية التي بها قيام كل شئ, اذ كل شئ قائم بالله و في الله و على الله, و يكون جسم الخاتم هو العالم, و فص الخاتم هو الانسان الخليفة. فكما سنرى بعد قليل ان شاء الله, فان للانسان علاقة عبودية مع الله, و خلافة مع الخلق, و رمزية الفص و الخاتم لها أيضا اعتبارين بحسب العلاقتين.

فالانسان هو الخاتم لفص اسم الله, هذا اعتبار. و العالم هو الخاتم لفص الانسان خليفة الله, هذا اعتبار. و قد ذكر الشيخ الاعتبارين في موضعين فتأمل.

ـــ مستويات الوجود.

الحكمة, الكلمة, الاسم الالهي, الاسم الانساني, و الوسائط و البرازخ بين المستويات.

و قد فصّل الشيخ هذه المستويات أكثر في بداية الفص الادمي اذ يكتب " لما شاء الحق, من حيث أسمائه الحسنى..أن يرى أعيانها..في كون جامع..لكونه متصفا بالوجود " . و في الفقرة التالية يكتب أن العالم كله "شبح مسوّى" و" صورة" , و الانسان هو " روح " العالم.

فالحق من حيث ذاته,

الحق من حيث أسمائه,

الانسان الخليفة الروحي,

الكون الشبحي الصوري.

و أما البرازخ و الوسائط فمبحث عريض لا نريد أن ندخل فيه الان و له موضعه المناسب ان شاء الله.

فهذه المستويات الأربعة الأساسية للوجود: الحق من حيث ذاته يمكن أن نصطلح عليه ب "الذات". و الحق من حيث أسمائه ب "العرش" اذ العرش هو أول محل لتجلي الأسماء و منه تتنزل على ما دونه فهو من باب تسمية الحال بالمحل. و الانسان الخليفة الروحي ب " الخليفة ". و الكون الشبحي الصوري ب " الخلق ". فالذات و العرش و الخليفة و الخلق.

" الحكمة " هي مستوى الذات, و " الأسماء الالهية " الواردة هي مستوى العرش, و " الكلمة " هي مستوى الخلق, و " الأسماء الانسانية " الواردة هي مستوى الخليفة.

فالحكمة تتجلى في الاسم الالهي, و الاسم الالهي يتجلى في الخلق بواسطة الخليفة. هذا هو الفيض القدسي و جمال الوجود.

ـــ نظرية في تأويل الكتب المقدسة.

الكتب المقدسة لها مستويات في الفهم و الارشاد تتناسب مع مستويات الوجود. و التأويل هو الوعي بالأول, و أول مستوى للوجود هو الذات. و بالتالي يكون التأويل الأعلى هو معرفة كيفية رجوع كل معاني الكتب المقدسة الى الذات الالهية. فيكون كل مضمون هذه الكتب خصوصا هو رموز و أمثال متعلقة بالشؤون الالهية الذاتية و الأسمائية. و لذلك قصة ادم و موسى و عيسى و اسماعيل و غيرهم من الأنبياء في القرءان لم ينظر اليها الشيخ في كتابه فصوص الحكم على أنهم شخصيات تاريخية بالمعنى المشهور, و انما نظر لهم على أنهم الكلمات التي تظهر فيها تجليات الذات. فكل نبي يرمز الى حقيقة معينة, أو مجموعة حقائق عالية, و قصّته تعبير رمزي- و الرمز لسان الغيب و الوحي- عن هذه الحقائق الالهية.

و هذا هو المضمون السليم لمعنى مقولة : كلام الله عين ذات الله. ليس الكلام هنا هو هذه الحروف العربية و ان كانت كذلك من حيث مستوى العرش, اذ القرءان تنزّل من العرش, و لكن القصد هو أن كلام الله في تأويله الأعلى يدل على ذات الله, و يكشف عن شؤون ذاته و أسمائه و تجلياته. فالعلماء أهل التحقيق الذين رفضوا أن يعتبروا أن كلام الله مخلوق, انما رفضوا أن يعتبروه كذلك لأن رتبة الذات و العرش و الخليفة فوق رتبة الخلق من حيث المبدأ, و الخلق شامل للسموات و الاراضين و كل ما بينهما, و اعتبار كلام الله مخلوق يعني حصره في الشبح الصوري للخلق, و فصله في الصدور و الدلالة عن ذات الله و عرشه, و هذا يعني أن القرءان أدنى مرتبة من الانسان, و

جعل القرءان أدنى من الانسان يساوي حرق القرءان و القاءه في سلة المهملات. لان القرءان سلّم الى الله, و ليس وسيلة الى الدنيا, و ان كانت حسنة الدنيا تتبع معرفة أسراره و علومه تلقائيا و بدون تكلّف, و انما نتحدث من حيث النظر الأعلى للقرءان.

و أما الذين قالوا بأن القرءان مخلوق, فالتحقيق أنهم نظروا اليه من حيث تنزّله, أي بما أنه تنزّل و أصبحت له صورة في عوالم الخلق, فهذا يعني أنه مخلوق. و من زاوية أخرى, اعتبروا أن جعل القرءان شأنا من شؤون ذات الله تعالى يعني أنه يوجد شريك لله أزلا و أبدا, فنظروا الى بساطة الذات الأحدية, و اعتبروا أن كل صفة أو اسم يضاف الى الذات الأحدية لا يضاف من حيث الحقيقة و انما باعتبار اخر كأن يكون مجازا او في مرتبة أدنى و نحو ذلك. و الواقع أنه يوجد رتبة في ذات الله تنمحق فيها كل القيود و التجليات, أي الأسماء و الصفات, و هي غيب غيوب الهوية, و في تلك الرتبة لا اسم و لا رسم, و لا نسبة و لا اضافة. الا أن نفي الاسم و الرسم و النسبة و الاضافة عن هذه المرتبة انما هو نفي نظر و ليس نفي حقيقي. و هذا فرق عظيم. نفي من حيث نظر العين القاصرة عن رؤية الحقيقة الكاملة. و يشبه أن يكون تحليل رياضي يقوم به عقل المفكر فينفي كل ما يظهر له على أنه سمة للذات حتي يبقي "الذات" مجردة عن كل شئ, ثم يعتبر ان هذه هي هوية الله تعالى في أعلى مستوياتها. الا أن الواقع هو هذا : نفي الأسماء عن الهوية هو تضمين لكل الأسماء في الهوية. فكل الأسماء و الرسوم و النسب و الاضافات و القيود و التجليات و المستويات و المراتب و الدرجات و المخلوقات متضمنة في عين نفي كل هذه الأمور و الشؤون عن ذات الحق تبارك و تعالى. و لكنه تضمن استهلاكي. فكل هذه الامور موجودة حاضرة في الهوية الأحدية, و تجليها و خلقها هو في اظهارها في مستوى خاص في الهوية, و هو الذي نسميه التجلي و الخلق و الاظهار. اذ من أين جاءت كل هذه الاشياء و الأمور ان لم تكن حاضرة أزلا في الهوية الالهية. الاناء ينضح بما فيه. و ليس في الوجود الا الله. فلا ينضح شئ في الوجود الا و هو أزلا حاضر في الله. و ما كان حاضر في الأزل كان حاضرا في الأبد. " و الى الله ترجع الأمور " " و اليه يرجع الأمر كله ". فاذن نفي حضور شئ في ذات الحق في الأزل ليس تنزيها لله عن الشريك, اللهم الا بالنسبة لنظر المفكر التحليلي , بل حتى بالنسبة لمن يرغب في شهود الذات خالية عن التجليات (و هل يمكن ذلك أصلا ؟ سيجيب الشيخ عن هذا لاحقا ان شاء الله, فانتظره) .

فالحاصل, أن الذين قالوا أن القرءان غير مخلوق نظروا اليه باعتبار حقيقته, و الذين قالوا بان القرءان مخلوق نظروا اليه باعتبار تنزّله.

مع أن أسماء الله تتنزّل أيضا, و هي التي تخلق الأعيان كلها, و خلقها هو عين تنزّلها, اذ الخلق هو نوع نزول من ذات الخالق الى ذات المخلوق و ظهوره فيه بغض النظر عن مستوى هذا الظهور. فمثلا اسم الله العليم تنزّل و ظهر في صورة المعلّم , فهل هذا يعني أن "اسم العليم مخلوق" . المخلوق لا يفعل بالفعل الأصلي, و انما هو منفعل, و فعله نابع من انفعاله, و الفاعل المطلق هو الله تعالى, فاعتبار أن القرءان مخلوق هو نفي لقيمته المطلقة في الوجود, باحالته الى منفعل يتحكم فيه بعض البشر و يعاملوه كابن من أبنائهم, و ان لم يكن القرءان فاعلا فلا

قيمة للقرءان و هذا مضاد لنفس تعريف القرءان, فالقول بذلك يساوي القول بان الله ليس خالقا و مع ذلك يجب الايمان بان الله هو العظيم المطلق, اذ نفي الخالقية عن الله يساوي في الواقع نفي الله- و العياذ بالله, و هو يساوي القول المتناقض : الله ليس الله. فاذن, التنزل من حيث هو تنزّل يدل على ان الشئ عال, أي في مبدأه عال. اذ التنزل يعني : العال نزل. و هل ينزل الا من كان فوق. و لهذا العالي يمكن أن يتنزل في أكثر من صورة, و أما السافل فمحدود في صورة معينة لا يستطيع أن يخرج عنها. فاسم الله العليم مثلا, يمكن أن يظهر في ادم و جبرائيل و معلّم الأطفال في المدرسة و الأب الذي يعلّم ابنه و الكتاب الذي يعلّم قارئه و هكذا. و القرءان في حقيقته عال, و ما هذا القرءان العربي الا تجلي من تجلياته, و ان كان تجليا عظيما " و كان فضل الله عليك عظيما ". فاعتبار القرءان مخلوق هو نفي للحقيقة العليا للقرءان, و بالتالي قطع للقرءان عن جذره الأعلى, و ان لم يكن له جذر أعلى فهذا يعني أن جذره أسفل, و جذره أسفل يعني أنه صناعة بشرية, و هذا الذي قصده من قال " ان هذا الا قول البشر " فهو لاحظ ظهور القرءان في صورة البشر, الذي هو الشبح الكوني المصور, و غفل عن المصدر الأعلى و المثال الأسنى, فنسب ظهور القرءان الى هذه الصورة البشرية, لانه لم يجد في عقله الضيق شئ ينسبه اليه غير هذا.

لا يفقه التأويل من لم يكن وعيه قد ارتفع الى مستوى المبادئ العليا في الوجود. تأويل الكتب المقدسة و العرفانية ليس عملية ميكانيكية لغوية أو شاعرية عاطفية, و لا هي اعتباطية اتفاقية, و لا هي اجتهادية فكرية بالمعنى السفلي للاجتهاد و التفكير الذي يحيل العقل المقدس للانسان الى دماغ مسجون في أسخف فهم للمنطق الصوري الوضعي. نعم التأويل منه كشف وحياني و منه عقل اجتهادي, و لكن العقل الذي يتحدث عنه العرفاء ليس العقل الذي يتحدث عنه من أخلد الى الارض و اتبع الهاوية. و من مصائب الدهر المماهاة بين الاثنين. العقل عند العرفاء هو العقل الذي قصده الامام علي عليه السلام حين ذكر أناسا كلمهم الله " في ذات عقولهم " و "خاطبهم في فكرهم ". هو العقل في مستوى العرش او قريب منه. هذا هو عقل الانسان الحق. و من مثل هذا العقل يمكن أن يصدر اجتهاد فكري بالمعنى النبوي القدسي. فتكون كلماته و أفكاره حبل يصل القارئ الى رياض القدس و مراتع الأنس, و أسرار العلم و أسباب الحلم. فكتب العرفاء التأويلية و الكشفية هي كتب الهية و نبوية , من هذه الحيثية. و من أوائل شروط بلوغ هذه المرتبة هي أن يرتفع الانسان بروحه و عقله و نفسه من مستوى عوالم الخلق الى أن يرجع الى ذات الحق ثم من هناك ينزّله الله و يبعثه في بحار العرش ثم يمكّنه في مقام الخليفة. و بعد أن يتمكّن في مقام خلافته عن الله- و بعد ذلك فقط- تفتح له أبواب الكتب المقدسة و الصحائف العرفانية المطهرة, و عندها يكون عمل عقله فيها تأويل قدسي مبارك- على الجمله.

قراءة كتب العرفان ككتابة كتب العرفان, لا تكون الا من هذا المقام, و الا فهي محدودة بمستوى القارئ و الكاتب و لا يكون هذا الا رتبة في عوالم الخلق, و بالتالي يكون فهمه "مخلوق" و كتابه "مخلوق". و همّة الانسان لا تسكن في المخلوق بل لا ترضى الا بمقام " ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين او أدنى ". و لهذا سمّى من سكنت همّتهم في

رتبة من رتب عوالم الخلق باسم " كألأنعام "و "الكلب" و "حمار" و "كالحجارة" و "قردة" و "خنازير" و ما أشبه. فهي تدل على الرتبة التي ارتضوها لانفسهم. و هذا هو الابتلاء : أن تختار مستوى وجودك. و ذلك لأن الانسان من حيث ذاته ليس مستقرا استقرارا حدّيا في مقام معين في الوجود, بل ان أفاق الوجود كله بداية من مقام الخلافة تحت عرش الأسماء الالهية حتى أسفل سافلين بحر الظلمات الجسمانية, كل هذه المراتب مفتوحة أمام الانسان من حيث هو انسان. و أما الحمار فلا يكون الا حمارا, و الشمس لا تكون الا شمسا, و جبرائيل لا يكون الا جبرائيل , و الشيطان لا يكون الا شيطان. و أما الانسان فقد يكون حمارا "كمثل الحمار يحمل اسفارا" و قد يكون شمسا " و داعيا الى الله باذنه و سراجا " "و جعل الشمس سراجا", و قد يكون ملاكا بل أعلى من ملاك " فسجد الملائكة كلهم أجمعون " , و قد يكون شيطانا " شياطين الانس و الجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ". و غير ذلك من مقامات و مراتب و أحوال و مستويات وجودية. و الانسان بحكم كونه خليفة من هو "الأول و الاخر و الظهر و الباطن " و من " و هو معكم أينما كنتم " فانه قد انفتحت له كل هذه المستويات الوجودية. و هنا الابتلاء : "أيكم أحسن عملا". لاحظ أنه جاء بصيغة "أحسن" التي تدل بنفسها على التراتبية في الأعمال و الأعمال الحسنة خصوصا. و هذه تدل على أن الانسان لا يعمل الا الحسن،لان الحسن ما وافقه الحقيقه و الحقيقه قد حكم بها الله فعلا و لا يمكن تغييرها ، فحتى لو اختار أن يكون شيطانا فهو انما عمل بمقتضى فطرته التي فطره الله عليها, أي قابليته لان يكون شيطانا, و لولا أنه قابل بذاته لما كان فاعل و قابل بوعيه و اختياره. أي لما اختار و رضي بهذه المرتبة لنفسه. فكل ما يفعله الانسان انما يفعله بمقتضى فطرته و الامكانية الواسعة التي جعلها الله في قابليته. و كما يكتب الشيخ " القابل لا يكون الا من فيضه الأقدس ". فاذن, لا غرابة في كل ما يفعله الناس, و يعتقدونه, و يحبونه, و يرتكبونه. لا غرابة عند من يدرك حقيقة الانسان. و أما من عنده تصور رومانسي عن الانسان ثم يستغرب و يحتار عندما يجد بعض أعمال الناس و اختياراتهم , فمثل هذا يحتاج الى أن يعيد النظر في تصوره و من أين استقاه, و ليس عليه أن يضيع وقته و جهده في الاستغراب من شئ طبيعي و فطري. الابتلاء ليس مصطلح سلبي مخيف . انما يعني بكل بساطة: مستويات الوجود مفتوحة أمامك, و الله يريد أن ينظر أين ستختار أن يكون مقامك. و ما حياتك الا استقرار في مقام وجودي, سواء شعرت ام لم تشعر, سواء أدركت ام لم تدرك. و أعلى مقام يمكن أن يستقر فيه الانسان هو مقام الخلافة. و أما رتبة العرش و الذات و غيب غيوب الهوية الأحدية فان هذه الرتب ليس لغير الله فيها قدم, و هي قاهرية الله لمن دونه " و هو القاهر فوق عباده " و هي مصدر امداد كل شئ " كلاً نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظورا " و فاعل الخلق المطلق "الله خلق كل شئ و هو على كل شئ وكيل", و المعبود المطلق لكل شئ " ان كل من في السموات و الارض الا أتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم و عدّهم عداً ". و خليفة الله عبد الله " و لمّا قام عبد الله يدعوه". هو عبد بالنسبة لمن فوقه و خليفة بالنسبة لمن دونه. فلا يكون الانسان الا عبد لله, و هو أشرف مقام للانسان بالنسبة لله تعالى. و لهذا قدّم ذكر عبودية محمد على رسالته " و اشهد أن محمدا عبد الله و رسوله". فليس لأحد علاقة مع الله الا علاقة عبودية و افتقار, سواء كان الافتقار ناشئ من وعي و اختيار او جبر و اضطرار. " يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله ". هذه

الاية هي شعار الانسانية. و الذي لا يعبد الله بوعي سيعبد ما دون الله بوعي و بغير وعي. و ليس من هذا مفر. و لهذا لم نجد سفيها يزعم أن عبادة الله مهانة لانسانيته- و حظه من الانسانية كحظ ابليس في الجنة- الا وجدناه عبدا ذليلا لكثير مما هو في أسفل مراتب الوجود. الذي لا يعبد الله بوعي لا يكون خليفة الله, و الذي لا يكون خليفة فقد سقطت انسانيته. و الذي أسقط انسانيته لا يحق له أن يتحدث عن الكرامة الانسانية. أي كرامة و قد جعلت نفسك في صف القردة و الخنازير ! بل الحجارة و الحديد ! ليس على الأعمى حرج اذ " ذلك مبلغهم من العلم ". و انا لله و انا اليه راجعون.

و هذه الجدلية بين عبد- خليفة, هي الجوهر الأعلى للانسان. و كل كتب القرءان و العرفان هي وسيلة لبلوغ هذا المقام, و أيضا هي غاية في حد ذاتها يمارس فيها الانسان جزء من انسانيته. بمعنى, أن المعرفة وسيلة و غاية . هي وسيلة الى أمور, و هي غاية في حد ذاتها. و هذه الجدلية في المعرفة بين وسيلة-غاية هي أيضا من مقتضيات روح الانسان. فبعض المعرفة يكون القصد الأول فيها أنها وسيلة الى شئ, كأن تكون وسيلة لتنظيم المعيشة الاجتماعية. و بعض المعرفة يكون القصد الأول فيها أنها غاية في ذاتها, كأن تكون متعلقة بذات الحق. فالعلم قد يكون وسيلة للعمل, و قد يكون العلم هو عين العمل. و ان أردنا ان نضع قاعدة واقعية لهذا التقسيم, مع مراعاة الاتصال بين كل علم و كل عمل على وجه العموم, فانه يمكن أن نكتب: كل علم تعلق بالعبادة فهو علم مقصود لذاته, و كل علم تعلّق بالخلافة فهو علم مقصود لغيره. الكتب العرفانية يغلب عليها أن تكون متعلقة بالعبادة, اي في علاقة العبودية بين الانسان و ربه, و لهذا فانه من الغفلة أن يطالب بعض البشر العرفان ب "نتائج عملية". و كتب الشريعة- بالمعنى الارضي للشريعة- يغلب عليها أن تكون متعلقة بالخلافة, أي في علاقة الانسان بغيره من الناس و المخلوقات, و لهذا فانه من الغفلة أن يطالب البشر علماء الشريعة ب "أحوال روحانية". أكرر, هذا لا يعني فصل تام بين العرفان و الشريعة, كما انه لا يوجد فصل تام بين مقام العبودية و مقام الخلافة. بل العرفان هو مبدأ الشريعة, و الشريعة سبب و مظهر للعرفان. فالعلاقة بين العرفان و الشريعة تشبه العلاقة بين ذات الحق و عرشه. و ان من اهانة الانسان و مهانته أن يحكم بغير شريعة ربه او تحكمه غير شريعة ربه. اذ ان لم تكن شريعة الله فهي شريعة دون الله, و بالتالي يكون الانسان عبد لما دون الله. العرفان علم العبودية, الشريعة علم الخلافة. و بقدر عبودية الانسان لله تكون خلافته في أرض الخلق, كذلك بقدرعرفان الانسان يكون فقهه في الشريعة و قيامه بحق الخلافة. و كلما ضعف عرفان الانسان زاد اعتباره للشريعة على أنها "تكليف" بالمعنى السلبي و الشاق. و العكس صحيح. و لهذا تجد العرفاء يأخذون بأعمال و أراء في الشريعة يعتبرها الضعفاء أنها من التشديد على النفس و المبالغة في التديّن, و لكن اذا نظرنا الى هؤلاء العرفاء نجد أنهم يقومون بها بنفس درجة ارتياح الضعفاء عندما يتنفسون الهواء او يشربون الماء. الشريعة ماء الحياة, و موسيقى عوالم الخلق. الشريعة الحق طبعا. و لهذا سمّيت "شريعة" تشبيها بشريعة الماء, و بما يشرع من الأوتار على العود. و الماء يشرب, و لا يحمل على الظهر و لا يقيّد

أحد بسلاسل و أغلال, هل تجد في الماء سلاسل و أغلال ! كذلك الشريعة, هي ماء يشرب, و يروي و يطهّر. و أما الأغلال فهي حديد و حجارة و ليست شريعة. و كذلك أوتار العود, فان العود لا يصدر الموسيقى الا اذا عزف عليه ماهر عارف ذو روح مرهفة, كذلك شريعة الله يجب ان يشرحها و يفسرها و يعمل بها أناس ذوي أرواح راقية و عقول جميلة حتى تصدر موسيقاها في الوجود, و أما اذا أعطي العود الى طفل و جهول فانه لا يصدر منه الا النشاز و الازعاج- و العياذ بالله. و لهذا جعل الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية , العرفاء هم الفقهاء حقا و أنهم في مرتبة أعلى من الفقهاء بالمعنى المشهور لهذه اللفظة, و أنه على العرفاء أن يكونوا المرجع في أمورالشريعة الالهية و مرجعيتهم أولى من مرجعية غيرهم, ممن استمد "فقهه" بمجرد قراءة كتب و سماع روايات, بدون اهتمام أبدا او اهتمام ثانوي بالعرفان و تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى او قريب منها. و هل يأتي النشاز و الازعاج الا من عزف امثال هؤلاء على أوتار عود الشريعة الطاهرة. الشريعة التي يطرب لسماع ألحانها ملائكة السماوات و تتمايل لريح جمالها أزهار الأرض. هيهات ان ينال مثل هذا بقال و قيل و قلنا. و الجدلية المشهورة بين الظاهر-الباطن لها ارتباط وثيق بهذا الموضوع. مع ملاحظة أنه وجد على نطاق واسع زمانيا و مكانيا خطأ لفظي مهم في استعمال هذه الكلمات. فتم اعتبار "الظاهر" على أنه يدل على عالم الاجسام و المحسوسات البدنية, و "الباطن" على انه يدل على عالم الأرواح و المعنويات القلبية و الحقائق العقلية. و الواقع أن "الظاهر" هو الروح, و "الباطن" هو الجسم. الظاهر هو الأعلى, و من هنا يسمى "ظاهر" كما نقول : ظهر فلان على فلان, أي غلبه و علا عليه. " انهم ان يظهروا عليهم" و هذا في القرءان كثير. و أما الباطن فهو الأسفل و الأدنى و المختفي, و من هنا سميت بطن الجسم بالبطن. و في تراتبية الوجود, عالم الروح أعلى من عالم الأجسام, بل ان عالم الأجسام هو أسفل مرتبة في الوجود عموما, و هذا العالم ينقسم الى درجات بعضها فوق بعض. الملكوت أعلى من الملك. فالملكوت هو الظاهر, و الملك هو الباطن. و بالتالي نحن لا نطلب المعاني "الباطنية" للشريعة, بالمعنى المشهور للشريعة, و انما نطلب المعاني "الظاهرية". و انما يعتبر عالم الأرواح انه "باطن" بالنسبة لمن استحبوا الحيوة الدنيا على الاخرة و غلبتهم الارض السفلية على أنفسهم و وعيهم, حتى أصبح الحجر و الدود أظهر عندهم من عرش الحق و ملائكته. و لهذا قال عنهم " يعلمون ظهرا من الحيوة الدنيا و هم عن الاخرة هم غافلون " و "فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ". و من كان يرى أن الحشرات و النباتات أظهر من جبرائيل , فانه يحتاج أن يبكي على نفسه و يجاهد في الله حق جهاده. فاذن, كل مرتبة تعتبر باطن بالنسبة لما فوقها, و ظاهر بالنسبة لما تحتها. و لهذا لما اعتبر فقهاء السوء أن روح الشريعة "باطن" استحلوا تلقائيا بعدها- و لو بغير وعي أحيانا- أن يعرضوا بالكلية عن هذا "الباطن" بل كفّروا أهله أحيانا, و منهم من زلّ- مع الأسف- كأستاذنا صاحب الموافقات- سامحنا الله و اياه- فاعتبر هذا من "ملح العلم" و ليس من "صلب العلم" بل و أوشك أن يجعله خارج من العلم بالكلية بل و مضاد للعلم, مع الرغم من أنه يعتبر مقام شيوخ الصوفية أعلى من مقام فقهاء الجماهير, و الحق أن النظر العميق في الشروط التي ذكرها لاعتبار علم ما من "صلب العلم" يؤدي الى اعتبار العرفان الحقيقي صلب صلب العلم, ليس فقط من صلبه, فنعم بهذا الاعتبار يكون صاحب الموافقات قد أنكر نوع من ادعاء العرفان و ليس العرفان في

نفسه. و أما التوجه العام للناس, فانه شبه اعراض كلّي عن حقائق العرفان, و اعتبارها في أحسن الاحوال "لطائف و رقائق " و ما أشبه من تسخيف للعالي, و ترفيع للداني. فكما أن العبودية أعلى من الخلافة, فكذلك ظاهر الشريعة- روحها- أعلى من باطنها- اي صورتها. مع مراعاة كل جزء من جزئيات الشريعة و موضوعه, و ليس هذا موضع التفصيل. المهم من هذه الفقرة هو اعادة وضع الأمور في نصابها و مراتبها. و ان كان هذا الاستعمال الشائع قد وافقه عليه تقريبا كل العرفاء، و منهم المولى ابن عربي، و الذي يظهر انهم استعملوه من باب مخاطبه الناس بالسنتهم الدارجه، و الا، فان الحقائق كانت معروفه لهم، كما لا يخفى.

فاذن: العبد- الخليفة, العرفان- الشريعة, الظاهر- الباطن. هذه مفاتيح لكنوز الحقائق الالهية و الكتب المقدسة و الصحائف العرفانية. و بتعبير الشيخ الأكبر : الحكمة – الكلمة .

ـــ نظرية في حد الوجود الالهي.

الالوهية مرتبة مقيّدة, لانها تقتضي المألوه. كما أن الربوبية تقتضي المربوب. و ظهور الاله في المألوه هو عين ألوهيته, كما أن ظهور الرب في المربوب هو عين ربوبيته. و ان كان للاله و الرب ذاتا من حيثية أخرى متعالية عن التنزل و التجلي, و هي مرتبة الهوية الأحدية باعتبار التجريد, الا أن الكلام هنا عن مقام التقييد. و لهذا التقييد وجد التفريق بين الحكمة و الكلمة , و "الهية" و "ادمية". و لهذا اعتبر القرءان جهل من يريدون أن "يفرّقوا بين الله و رسله " و يقولوا " نؤمن ببعض و نكفر ببعض ". و لذلك اعتبر أن " من يطع الرسول فقد أطاع الله " و أن "الذين يبايعونك انما يبايعون الله". لان الرسول هو صورة الله, و الله هو روح الرسول. " و ما رميت اذ رميت و لكن الله رمى " فأثبت له الرمي من حيث الصورة, و نفى عنه الرمي من حيث روح الحقيقة. فللرسول صورة مفارقة لله, و له حقيقة هي عين تجلي الله, و من هنا قال "و تراهم ينظرون اليك و هم لا يبصرون " ينظرون الى صورتك و لا يبصرون حقيقتك, اذ انها "لا تعمى الابصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور". فمن ينظر الى الحقيقة المقيدة يقول : الله محدود. و من ينظر الى تجلي الحقيقة يقول: الله أكبر. و من ينظر الى غيب غيوب الحقيقة يقول: أحد أحد ما ثمّ الا الله. و تكبير الله هو الاكثار من اظهار تجلياته. "و ربك فكبّر ". و ليس كل صورة يصح أن نجعلها مجلى لله بل الله جميل يحب الجمال و لذلك جاء بعدها " و ثيابك فطهّر " اذ الثوب هو الصورة, و الله طاهر قدوس, فجمّل صورتك يا محمد لأني جعلتك مرآة أظهر بها لخلقي. فالالوهية هي أعلى مرتبة في الوجود المقيّد. و تنزّلها و تجلّيها يكون بواسطة الخليفة, الذي هو المرآة العظمى و روح الكون. "و ان الله لذو فضل على الناس و لكن أكثر الناس لا يعلمون ". و الحمد لله رب العالمين